20 عشرون عاما
القراءة للجميع

وزارة الاعلام
الهيئة العامة للاستعلامات

رواد الحركة الوطنية في مصر



محمد فريد

Mai.R

سلسلة رواد الحركة الوطنية المصرية
في التاريخ الحديث

محمد فريد

ملاك الحركة الوطنية

تأليف : أ.د محمود متولى
أستاذ التاريخ الحديث والمعاصر

تدقيق لغوى : محمد عبد الظاهر

إشراف عام
آيــة أبو العـز

إشراف
صبحى عبد البصير

الإخراج الفنى
منى سامى

فهرس الدراسة



الإهـــداء

إلى كل من أحب مصر الحبيبة .. وطن الأجداد وأمل الأحفاد ...

إلى كل الشهداء الذين ضحوا بدمائهم فى سبيل هذا الوطن لينعم بالحرية السياسية والعدالة الاجتماعية .

إلى إمام الشهداء ... محمد فريد ... بطل آمن بالقيم وضحى بثروته وحياته من أجل الوطن .. ليكون بحق أبرز رواد الحركة الوطنية فى تاريخنا الحديث .

" إن كل تفتيش عن بطل يجب أن يبدأ بالبحث عن قيم "

فإلى رمز الوطنية الصادق ... وإلى الذين ساروا على نهجك وثبتوا على مبادئك ...

إليهم جميعاً أهدى هذا العمل المتواضع ...

محمود متولى

تقديم

يقف تاريخ مصر بمكوناته الثقافية والحضارية والفكرية شاهداً حياً على عظمة أبنائها الذين قدموا أروع التضحيات الوطنية وأعظم الإسهامات العلمية والثقافية على الصعيدين العربى والعالمى.

وعلى امتداد التاريخ لم يتوقف عطاء أبناء مصر وإسهاماتهم المتنوعة فى مختلف جوانب الحضارة الإنسانية، و كثيرة هى الشواهد الدالة على ذلك فى تاريخ مصر المعاصر لعل أبرزها حصول أربعة من أبناء مصر على جائزة نوبل فى أقل من ثلاثة عقود حيث حصل الرئيس أنور السادات فى عام ١٩٧٨ على جائزة نوبل للسلام، ونال الأديب الكبير نجيب محفوظ فى عام ١٩٨٨ جائزة نوبل فى الأدب، وحصل العالم المصرى الدكتور أحمد زويل على جائزة نوبل فى الكيمياء عام ١٩٩٩، ونال الدكتور محمد البرادعى جائزة نوبل للسلام عام ٢٠٠٥ .

إن هذا العمل - سلسلة رواد الحركة الوطنية - الذى يحكى سيرة أمة وتاريخ وطن وعبقرية إنسان هو فى حقيقة الأمر - كما نتمناه - مصدر إلهام للأجيال الشابة تستمد منه العزم والإرادة والأمل لمواصلة مسيرة النهضة فى مختلف مواقع العمل الوطنى.

السفير/ اسماعيل خيرت

رئيس الهيئة العامة للاستعلامات

تمهيد

إذا أردنا أن نقيس بمقياس الشجاعة سيرة محمد فريد فهو رجل شجاع شجاعة أدبية لا تعرف الرياء أو النفاق أو الكذب ولكن تعرف الحق وتتمسك به. وشجاعة عملية، إذا اقتضى الأمر أن يخوض الخطر فى سبيل المبدأ .. فى سبيل الوطن فإنه يقتحم هذا الخطر بقلب ثابت ونفس مطمئنة.

وإذا قيست سيرته بمقياس الثورية، فقد كان رجلاً ثورياً، متمرداً على كل أنواع الظلم والجور والطغيان والفسق والخداع والاستغلال والفساد.

وإذا قيست بمقياس الحماس.. والجد.. والعمل الدؤوب الذى لا يكل.. فقد كان محمد فريد الرجل المشحون حماساً.. يتفانى فى أداء الواجب فى كل ميدان خاضه.

وإذا قيست سيرته بمقياس الذكاء والنظرة البعيدة فقد كان لماحاً يجيد التخطيط والتنظيم والتنفيذ ويعرف الطريق لتحقيق ما يريد.

وإذا قيست سيرته بالقدرة على قيادة الرجال، فقد كان مثلاً ثاقب البصيرة تمكن من أن يختار ويقود زملاءه، ومعاونيه وموظفيه، بل وجماهير الناس ليشتركوا جميعاً ككتيبة واحدة متعاونة ومتفانية فى العمل.. قيادة قوامها الاقدام وعنوانها العدل والحزم فى نفس الوقت.

نال احترام الجميع.. كما نال حب الجميع... كان نموذجاً لتفاعل العلاقات الجدلية بين الفكر والممارسة كما كان نموذجاً قيادياً يجمع بين العلمية الصادقة والانفتاح الذهنى والقابلية الديناميكية على توليد الخيارات وإبداع الحلول وابتكار الأفكار الخلاقة فى شتى المواقف والمستجدات ومع مختلف الشرائع والمستويات.. وقد عبر عن فهمه الدقيق لمعنى المسئولية بوصفها مصلحة الشعب، وجوهر الشرعية باعتبارها رغبة الشعب وإرادته.. وطالب كل مواطن شريف بأن يتحمل المسئولية.. ورغم تلاطم الأمواج حول مصر وعصف الرياح الاقليمية

والدولية بها إلا أنه حاول أن يقود سفينة النضال الوطنى محاطاً بسور الأمل والإرادة والتصميم والطموح بأن يراها دولة مستقلة ذات حرية وسيادة، وكان يردد أن هذه الصعوبات متوقعة بسبب جملة من الظروف الموضوعية والذاتية وأنها ليست عصية على المعرفة والفهم أو ممتنعة عن الحل.. كان يؤمن بأن كل مواطن مدعو للمشاركة فى مسيرة الكفاح من أجل الحرية والعدالة الاجتماعية والإحساس بهموم الوطن والبحث عن أجدى الطرق للتطوير والتحديث لأن التأخر والجمود والسكون فى المكان لهم نتائج ضارة على الجميع.

آمن محمد فريد بوطنه مصر.. امتلك جسارة الحلم ونضارة الأمل فى غد أفضل لوطنه.. لخص مآسى بلده فى الوجود الاستعمارى البريطانى الجاثم على أرضها وسيطرة قلة منحرفة نسيت الوطن تتعاون معه لصالحها فقط، وفى الغياب الكامل للديمقراطية بسبب الاحتلال.. فلا دستور ولا مجلس نيابى ولا وعى لدى الرأى العام..

كان محمد فريد يمثل الضمير الجمعى لكل المصريين... رجل نظيف فى أهدافه نبيل فى مبادئه وجد فى وسط نظام لا يحترم كرامة المصريين... فاستحق احترام خصومه قبل أنصاره.

لقد صنع التاريخ رجالاً تفتخر بهم الأمم والشعوب.. ومنهم بلا شك الشهيد الحي محمد فريد شهيد الوطنية ورمز العطاء والانتماء وأسطورة الكفاح الوطنى من أجل حرية واستقلال مصر العظيمة بروادها وبرجالها وبالمكافحين من أجلها... لقد صنع محمد فريد تاريخاً من الشموخ فى ميادين البذل والعطاء والعدالة الاجتماعية. كانت شخصية محمد فريد متعددة الجوانب واسعة المزايا.. يبقى الكثير منها حاضراً فى النفوس مقيماً فى الجوانح.. ميزه الله بصفات وسجايا عالية.. السماحة وطيبة القلب.. الأنفة والكبرياء.. العطف على الفقير والمحتاج.. الدعم للمؤسسات الاجتماعية.. العون والرعاية لكل جانب يخدم الوطن والمواطن.. أعماله وعواطفه نحو وطنه ومواطنيه جلية وواضحة خلال رحلة كفاح تشرق فى كل آن وتبرز فى الكثير من المناسبات.

أول من نادى بالديمقراطية للشعب فى عهد الاحتلال وأعظم من شجع على التعليم ونادى به لكل الطبقات الشعبية.. الرجل الذى رفض كل المناصب الرسمية ما دامت قوى المحتل تسيطر عليها... أول من تصدى لمؤامرة مد امتياز قناة السويس التى كان يريدها الانجليز فى صمت.

آمن محمد فريد بأن الأمم الحية تتعظ من مصائبها، تتعلم من أخطائها لصناعة حاضر أبنائها ومستقبلاً أفضل لأجيالها.

وكان فريد اشتراكى النزعة.. يؤمن بأن العدالة الاجتماعية واحدة من القيم الأخلاقية الكُبرى، حاول تبنيها والسعى لتحقيقها والحصول عليها.. آمن بأن العدالة ببساطة هى إعطاء كل واحد حقه بقدر استحقاقه بلا زيادة ولا نقصان.. كان يؤكد أن الحاجة للعدالة أكثر من سواها عندما نرى أناساً يمتلكون مؤهلات ضعيفة مقارنة بما يحصلون عليه من رفاهية اجتماعية ومادية وقانونية.. أو عندما نرى آخرين تتهمش حقوقهم مع استحقاقهم لها..

وآمن بأن الخلل فى ميزان العدالة يمثل عقبة حقيقية فى طريق التقدم الحضارى للأمة.. فالعدالة الاجتماعية كانت فى نظر محمد فريد قيمة أخلاقية قبل أن تكون تطبيقاً اجتماعياً قانونياً وأنها لا يمكن أن تطبق مالم تكن نابعة من إيمان ذاتى وعن نفس نزيهة شريفة..

عزيزى القارئ، إن الهدف من إصدار هذه السلسلة هو تعميق مفاهيم الانتماء الوطنى... وغرس حب الوطن فى قلوب الشباب مهما كانت التضحيات والتحديات.. وتخليد ذكرى أولئك الذين جعلوا الوطن هو الهدف النبيل للدفاع عنه والقيمة الرائعة للتضحية من أجلها.. والتأكيد على أنه لا يوجد مستحيل أمام الإرادة والإصرار للشعوب التى تريد بناء مستقبلها فى ظل كل الظروف القاسية التى تحيط بها.

إن الذاكرة الوطنية لتضامن الشعب مع قادته فى ظل القيم النبيلة تسطر الكثير، من الصفحات للأجيال المستقبلية للحرص على ما حققه أجدادنا من حرية وعدالة اجتماعية.

إن ذكرى محمد فريد لا تتقادم جدتها ولا تتضاءل عظمتها.. فهى تتجدد بتجدد الحوادث والظروف مهما تعاقبت السنوات..

إن علينا جميعاً أن نحمى هذا الوطن وندافع عنه لأن فى ذلك دفاع عن وجودنا وعن مستقبلنا... فهو سفينة نركب فيها جميعاً لتصل بنا إلى بر الأمان ولن يكون ذلك إلا بتضامننا وتمسكنا بقيمنا وتراثنا مع البحث عن المعاصرة التى تقودنا نحو الأفضل.. لذا ينبغى على كل مواطن فوق هذه الأرض أن يفهم واجباته ويقدر مسئولياته.

محمد فريد ضم وضمن الكثير ممن وضعوه فى حجرات قلوبهم وأيدوه بكامل عقولهم... أخلصوا له إخلاصاً لا وصف له.. فكان غيابه رسالة كما حضوره تماماً.. واجه السجن والظلم والاستبداد والاحتلال مفتدياً نفوساً مؤمنة به.. وكان المشهد الجلل والجليل فى حياة محمد فريد هو مشهد النهاية حيث مات وحيداً بعيداً عن أرض الوطن وظلت جثته بسبب تعنت السلطات فى مصر سواء الحكومة أو الاحتلال.. أسيرة صندوق حديدى فى إحدى كنائس برلين..

كان نضاله من أجل الحرية والعدل وكفاحه من أجل الديمقراطية والاستقلال.

رحم الله الزعيم الوطنى المخلص محمد فريد وجعل لنا فى سيرته ومن تاريخ الحركة الوطنية فى عهده نموذجاً يحتذى به فى التضحية والنضال.. يقوى إيماننا بمسئولياتنا نحو هذا الوطن وهذه الأمة ويزيدنا علماً وبصيرة بحقائق ما يواجهنا حتى تظل مصر دوماً رافدة للحضارة الانسانية ونموذجاً للحرية تمنح الأمن والأمان والحرية والسلام لبنيها ولكل المحيطين بها.

دكتور / محمود متولى

الفصل الأول
العصر الذى عاش فيه محمد فريد

إذا كان محمد فريد قد ولد فى ٢٠ يناير ١٨٦٨ وتوفى فى ١٥ نوفمبر ١٩١٩ فمعنى ذلك أن فترة حياته شملت الثُلث الأخير من القرن الـ ١٩ والربع الأول من القرن العشرين... وامتلأت هذه الفترة بالأحداث الجسام فى تاريخ مصر القومى فلم يكد يمر على ميلاده عامان حتى كانت قد افتتحت قناة السويس للملاحة العالمية فى نوفمبر ١٨٦٩ ... ولم يكد يمر على ميلاده سبع سنوات حتى كانت هزيمة الجيش المصرى أمام الحبشة فى ١٨٧٥ .. وهو نفس العام الذى أعلن فيه افلاس مصر ولم يأت عام ١٨٧٩ حتى كان الخديوى إسماعيل الذى تولى حكم مصر فى يناير ١٨٦٣ حتى ٢٥ يونيو ١٨٧٩ قد عزل(١).

ولم تكن تمر أربعة عشر عاماً على ميلاده حتى حدثت الكارثة الكُبرى فى التاريخ المصرى ونقصد بها وقوع الاحتلال البريطانى لمصر بعد هزيمة التل الكبير ودخول القوات الانجليزية القاهرة فى ١٤ سبتمبر ١٨٨٢ والذى ظل جاثماً على أرض مصر وكاتماً أنفاس المصريين ومقيداً لحريتهم حتى سنة ١٩٥٦ حيث جلا آخر جندى بريطانى عن مصر فى ١٨ يونيو ١٩٥٦ بعد توقيع جمال عبد الناصر لاتفاقية الجلاء مع الحكومة البريطانية فى ١٩ أكتوبر ١٩٥٤ والتى نصت على جلاء القوات الانجليزية عن مصر فى غضون عشرين شهراً.

امتلأ العصر الذى عاش فيه محمد فريد بالكثير من الأحداث لعل أخطرها بعد وقوع الاحتلال البريطانى هو حل الجيش العرابى وتكوين جيش استعراضى

(١) يحدثنا التاريخ المصرى أن أية هزيمة عسكرية للجيش المصرى لابد وأن يعقبها ثورة فى غضون خمس سنوات من وقوع تلك الهزيمة ... حدث ذلك بعد قدوم الحملة الفرنسية على مصر يوليو ١٧٩٨ ثم خروجها فى ١٨٠١ ولم تكد تمر أربع سنوات حتى قام الشعب المصرى بثورته العارمة فى مايو ١٨٠٥ بقيادة عمر مكرم والتى أتت بمحمد على والياً على مصر .. وعندما هزمت مصر ١٨٧٥ فى حربها ضد الحبشة كانت ثورة أحمد عرابى ١٨٨١ وفى أعقاب خضوع مصر للحماية البريطانية وسلبها شخصيتها وحريتها وفرض الأحكام العرفية عليها عند نشوب الحرب العالمية الأولى ١٩١٤ لم تكد تمر خمس سنوات حتى قامت ثورة ١٩١٩ وعندما هزم الجيش المصرى فى حرب فلسطين الأولى بعدها بأربع سنوات فقط قامت ثورة يوليو ١٩٥٢ ولما هزم الجيش المصرى فى ١٩٦٧ قامت ثورة التصحيح ١٩٧١ .

ليس له فى القتال ولا فى القدرة على حماية مصر ثم حرص الاستعمار البريطانى على خلق طبقة مصرية ترتبط بوجوده بل وتدافع عن بقائه... وسريان روح اليأس بين المصريين لمدة عشر سنوات بدءاً من عام وقوع الاحتلال حتى سنة ١٨٩٢ حين ظهر الزعيم مصطفى كامل على الساحة السياسية المصرية لتدخل مصر مرحلة النضال والكفاح ضد الوجود البريطانى.

مع ظهور مصطفى كامل نمت روح المقاومة وبدأت الصحافة الوطنية فى الظهور تدريجياً وجعلت هدفها الأول مواجهة روح اليأس... وكان لظهور جريدة العروة الوثقى التى كان يشارك فى تحريرها جمال الدين الأفغانى والشيخ محمد عبده فى باريس، ظهور عبد الله نديم فى القُرى والكفور وخطبه الثورية، وظهور لطيف باشا سليم وصالونه الأدبى الذى بث الوعى الوطنى فى نفوس كثير من المثقفين، الأثر الكبير فى التمهيد لظهور مصطفى كامل باشا الذى نفض اليأس عن الساحة المصرية استعداداً لمواجهة المحتل البريطانى فى رحلة شاقة زامله فيها صديق عمره ورفيق حياته الزعيم محمد فريد.

وكانت مصر قد شهدت أيضاً فى تلك الفترة توقيع بطرس باشا غالى وزير خارجية مصر آنئذ اتفاقيتى السودان فى يناير ثم فى يوليو عام ١٨٩٩ بعد إجبار الحكومة المصرية على التوقيع دون الرجوع إلى الشعب المصرى أو على الأقل دون عرضهما على المجلسين الصوريين النيابيين الذين كونتهما مصر تحت ضغط المستعمر. وبمقتضى ذلك الاتفاق الذى يعرف باسم الحكم الثنائى كان لبريطانيا كل الغنم ولمصر كل الغرم، بل ونجحت بريطانيا فى زرع نيران الفرقة بين الشعبين المصرى والسودانى... نعم بلا جدال أن بريطانيا كانت تريد التحكم فى مياه النيل فأبعدت الإدارة المصرية للسودان.. وكانت تهدف من وراء ذلك إلى خنق مصر وزراعتها بحكم أن مياه النيل هى شريان الحياة لكل المصريين.. لقد كانت حقبة الاحتلال البريطانى لمصر والسودان تعنى بث الكراهية والحقد بين الشعبين وزرع التشاؤم فى مستقبل أفضل لكلا البلدين...

وليس أدل على أن مصر كانت تدفع وتدفع من أجل السودان وبريطانيا تغنم وتكسب من محاولة الحكومة البريطانية مد امتياز شركة قناة السويس فى سنة

١٩٠٩ أربعين سنة أخرى تبدأ من نهاية حق الامتياز ١٩٦٨ إلى سنة ٢٠٠٨ م وذلك نظير أربعة ملايين جنيه للانفاق على السودان.. ذلك المد الذى فضح أهدافه محمد فريد وكان له الفضل فى ايقافه مما جعله العدو الأول للاحتلال البريطانى فى مصر، وتريص الانجليز به حتى أجبروه فى النهاية بعد النجاح فى سجنه مدة ستة شهور.. على النفى الاختيارى الإجبارى لمدة سبع سنوات تبدأ من ١٩١٢ وتنتهى بوفاته ١٩١٩ .

وكان أقسى ما عانى منه محمد فريد خلال فترة نضاله هى المحاولات البريطانية المبتكرة فى زرع بذور الفتنة الطائفية بين المسلمين والأقباط والتى وصلت قمة المأساة فيها فى عام ١٩١٠ فى أعقاب اغتيال رئيس الوزراء المصرى آنئذ بطرس باشا غالى فى فبراير ١٩١٠ على يد الثورى إبراهيم الوردانى والذى قام بارتكاب عملية الاغتيال معللاً جريمته بأنها لم تكن ترجع لكون بطرس باشا غالى مسيحياً، بل لأنه ارتكب فى حق الوطن أربع موبقات تصل إلى أكثر من مفهوم الجرائم وهى ترأسه محاكمة دنشواى رغم أنه ليس له موقع رسمى فى ترأس هذه المحكمة التى جسدت مأساة للشعب المصرى بكل فئاته وطبقاته والتى تعتبر - من وجهة نظرنا - المقدمة الأولى ليقظة الشعب المصرى ضد الانجليز ومقدمة طبيعية لنشوب ثورة ١٩١٩ ... كما كانت ثورة الجنود الرديف المصريين سنة ١٩١٦ هى المقدمة الثانية لهذه الثورة الشعبية العظيمة.

أما السبب الثانى الذى أقر به الوردانى فى لجنة التحقيق لاغتيال بطرس باشا غالى فهو توقيعه معاهدة السودان بين مصر وبريطانيا ويقصد به الاتفاق الثنائى سنة ١٨٩٩، أما السبب الثالث فقد كان قيامه بإخراج قانون المطبوعات - الذى كان قد صدر عام ١٨٨٦ - من قبره بعد أن ارتفع صوت مصطفى كامل منددا بالأفعال الإجرامية لسلطات الاحتلال ومن بعده محمد فريد وارتفع مد الغضب الشعبى وبدأت الأحزاب التى تشكلت منذ سنة ١٩٠٦ تنتقد الاحتلال وتقاعس السلطات المصرية وعجزها امام مطالبه، وكان على رأسها بالطبع الحزب الوطنى الذى شكله مصطفى كامل ثم خلفه فى رئاسته محمد فريد صديق عمره والذى كان فى موقع وكيل الرئيس أثناء حياته.

أما السبب الرابع من وجهة نظر الوردانى فقد كان تواطؤ بطرس غالى مع سلطات الاحتلال لمد امتياز شركة قناة السويس أربعين سنة أخرى لولا كشف محمد فريد للمؤامرة... أي أن الأسباب التى أدت بالوردانى إلى اغتيال رئيس الوزراء المصرى بطرس غالى (من سنة ١٩٠٨ إلى سنة ١٩١٠) لم يكن بها سبباً واحداً لكونه مسيحياً.

ولكن الانجليز استغلوا الحادث وبدأوا يثيرون الفتنة الطائفية التى لم تكن مصر تعرفها من قبل حيث عاش الأقباط والمسلمون فى أخوة ومواطنة متكاملة.

وتجئ الحرب العالمية الأولى لتشكل وجدان محمد فريد أكثر من كل وقت عاشه.. تلك الحرب التى تمثل علامة فارقة فى تاريخ مصر الحديث حيث قامت بريطانيا فى بدايتها بعزل الخديوى الثانى من أسرة محمد على والذى كان يزور تركيا فى ذلك الوقت وهو عباس حلمى الثانى (الذى تولى حكم مصر بعد وفاة أبيه الخديوى محمد توفيق سنة ١٨٩٢ وحكم حتى سنة ١٩١٤ لحين عزله).. وأعلن الاحتلال انتهاء علاقة مصر بالدولة العثمانية التى انضمت إلى ألمانيا فى هذه الحرب.. الأمر الذى كان حجة لبريطانيا لتغيير وضع مصر الدولى من ولاية تابعة للدولة العثمانية إلى كيان سياسى يقع تحت الحماية البريطانية التى فرضت عليها فى ١٨ ديسمبر ١٩١٤[1].. وقتئذ نظر محمد فريد وهو فى الخارج إلى تلك التطورات على أنها كارثة.. حيث أثر فيه خلع الخديوى عباس حلمى الثانى رغم أنه فى أيامه الأخيرة كان منحازاً للإنجليز ضد الحركة الوطنية بعد أن كان أكبر نصير لها.. ولكن بعد خلع أول معتمد بريطانى فى مصر بعد وقوع الاحتلال - اللورد كرومر - بدأت بريطانيا تتبع مع عباس سياسة المهادنة أو الملاينة مما جعله ضد الحركة الوطنية.. وكان محمد فريد يخشى على الوضع فى مصر بعد قطع صلتها بالدولة العثمانية... لأن الحماية هى شرعية متكاملة لمواصلة سيطرة الاحتلال على مصر.

(١) عندما احتلت بريطانيا مصر سنة ١٨٨٢م (١٣٠٠هـ) لم يتمتع الاحتلال بأي وضع قانونى لأن مصر كانت ولاية عثمانية تتمتع باستقلال داخلى وذلك كان يقلق بريطانيا حتى حانت لها الفرصة بفصل مصر عن الدولة العثمانية و إعلان الحماية البريطانية عليها . أما الشعب المصرى فقد عاش بعد هزيمة العرابيين مرحلة من الاحباط والجمود والخمول واليأس والاعياء مما أدى إلى تضاؤل الروح الوطنية وظن الكثيرون أن الحركة الوطنية ماتت فى نفوس المصريين حيث اختفت الخطابة السياسية والحركة الأدبية وتنكر الكثيرون - خاصة الأعيان - للحركة الوطنية وعاشت مصر فترة من عدم التوازن سيطر فيها اليأس وفقد فيها الأمل .

فى الوقت نفسه، نظرت النخبة السياسية الاجتماعية المصرية - من الذين كانوا لا يرون فائدة من مقاومة الاحتلال - إلى هذا التطور على أنه بارقة أمل لتحقيق الاستقلال الوطنى المنشود عند نهاية الحرب حيث تفقد الحماية مبرر وجودها وتنال مصر جزاء مساعدتها لبريطانيا وحلفائها فى الحرب استقلالاً يقوم على أساس تنظيم علاقتها ببريطانيا من خلال اتفاقية تضمن لبريطانيا مصالحها الإستراتيجية وتطلق يد مصر فى إدارة أمورها.

لقد عاصر محمد فريد أحداث الثورة العرابية ولم يكن عمره يتجاوز الحادية عشرة ثم عاصر ولاية الخديوى محمد توفيق بالكامل حيث كانت فى الفترة من سنة ١٨٧٩- سنة١٨٩٢ ولم يكن قد بلغ بعد فى نهاية عهده الرابعة والعشرين كما عاصر ولاية الخديوى عباس حلمى الثانى (الذى حكم مصر بدءاً من ١٣١٠هـ/ ١٨٩٢م) ولم يكن عمر هذا الخديوى وقت توليه الحكم يزيد عن ١٨ عاماً.. وكان عباس قد حاول أن يفلت من تحكم وسيطرة الانجليز فرأى أن يستعين بشباب ذلك العصر حيث قام بتأليف لجنة سرية للاتصال بالحركة الوطنية التى كانت قد بدأت منذ عام ١٨٩٢ والتى كان يقودها مصطفى كامل الذى كان يكبر الخديوى عباس بسنة واحدة فقط وقد عرفت هذه الجمعية باسم " جمعية أحياء الوطن " السرية وكان هدفها تكوين رأى عام مصرى من أجل الدعاية لقضية استقلال مصر فى الداخل والخارج وبالذات فى فرنسا العدو اللدود لبريطانيا آئنذ(١).

التقى مصطفى كامل وأحمد لطفى السيد وعدد من الوطنيين المصريين بمنزل محمد فريد وتم تأليف جمعية الحزب الوطنى كجمعية سرية رئيسها الخديوى عباس حلمى الثانى وأوفدت الجمعية أحمد لطفى السيد إلى أوروبا حيث التقى ببعض المصريين هناك.. ولكنه بعد عودته كتب تقريراً عن رحلته بأن أوروبا غارقة فى مشاكلها.. كما أن فرنسا التى كان يعول عليها لا تستطيع أن تضحى

(١) منذ إحتلال بريطانيا لمصر وفرنسا تعتبر أنها غدرت بها حيث أن مؤتمراً عقد فى القسطنطينية وقت وقوع احداث الثورة العرابية قد اتخذ قراراً بعدم اتخاذ أي دولة حلاً منفرداً فى مواجهة القضية المصرية ولكن السفير البريطانى فى القسطنطينية أضاف عبارة لهذا الإتفاق وهى (إلا فى حالة الضرورة القصوى) ولم تتنبه الدول لهذه العبارة إلا فيما بعد حيث أن بريطانيا انتهزت أحداث ما يطلق عليه مذبحة الاسكندرية فى ١١ يوليو ١٨٨٢ وأمرت أسطولها باقتحام طوابى الاسكندرية ... وقد اعتبرت فرنسا أن بريطانيا خانتها ، ولهذا ظلت هى الدولة الأوروبية الوحيدة التى تناجز بريطانيا فى استعمارها لمصر وتندد بهذا الاحتلال ... ومن ثم لم يكن من الغريب أن تتجه الحركة الوطنية المصرية إليها لمساعدتها على جلاء الإنجليز عن مصر .

بمصالحها نظير مساعدة مصر ووصل فى نهاية التقرير إلى أن مصر لا يمكن أن تتحرر إلا بمجهود أبنائها وأن المصلحة الوطنية تقتضى أن يتحالف الوطنيون مع رأس البلاد الشرعى (ويقصد الخديوى عباس حلمى الثانى) لأن ذلك هو الطريق الوحيد لو أرادوا النجاح فى إجبار إنجلترا على الجلاء عن مصر... لأن أحد الأسباب الرئيسية لوجود هذا الاحتلال أنه يدعى حماية الشرعية فى البلاد.

ولكن فشلت خطة الحركة الوطنية... إذ أنه بعد رعاية الخديوى لها مادياً ومعنوياً... انتهى الأمر إلى التناقض بينهما بمجرد أن تغيرت سياسة بريطانيا نحو الخديوى بمنحه بعض الامتيازات والسلطات –التى لا تؤثر على بقاء الاحتلال –ومن ثم حاول الخديوى التخفيف من حدة حركة الوطنيين حيث فشل فى ترويضهم ومن ثم بدأ الاحتلال أيضاً فى مطاردة قادة هذه الحركة... وقام بإغلاق صحفهم وتعليق أنشطتهم...

وحدث الصدام علناً بين مصطفى كامل وأنصاره وبين الخديوى عباس حلمى الثانى خاصة وأن فرنسا خرجت من حلبة الصراع ضد الوجود البريطانى بعد توقيعها ما عُرف باسم الاتفاق الودى بينها وبين انجلترا

سنة ١٩٠٤ والذى أطلق يد فرنسا فى المغرب مقابل إطلاق يد بريطانيا فى مصر... وجاءت يد الخيانة من جانب الخديوى خلال استعراض جيش الاحتلال البريطانى فى ميدان عابدين حيث صرح فى خطاب له أمام هذه القوات "إن الاحتلال البريطانى أفضل من أي احتلال آخر " مما أدى بالرد عليه من جانب الحركة الوطنية بمقال كتبه مصطفى كامل فى اللواء عام (١٣٢٥هـ/ ١٩٠٧م) قال فيه :-

" إن كل مصرى صادق لا يقبل أن يكون حكم مصر بيد سمو الخديوى بمفرده أو بيد المستعمر البريطانى أو بيد الاثنين معاً ".

... لقد تربى محمد فريد وجدانياً ووطنياً وسياسياً ونضالياً فى ظل هذه الظروف وأثرت على تكوينه السياسى حادثتان خطيرتان هما :

حادثة دنشواى ١٩٠٦ فى شهر يونيو من هذا العام والتى أعدم فيها الانجليز عدداً من الفلاحين المصريين أمام ذويهم بعد محاكمة صورية رأسها بطرس باشا

غالى وجلد البعض الأخر وسجن البعض الثالث دون ذنب جنوه سوى الدفاع عن أنفسهم...

أما الحدث الثانى فهو عودة مصطفى كامل فى حالة شديدة من الاعياء حيث ألقى فى ٢٢ أكتوبر ١٩٠٧ (١٦ رمضان ١٣٢٥هـ) أطول خطاب وطنى فى حياته - أطلق عليه محمد فريد خطاب الوداع - وأعلن فى هذا الخطاب تأسيس الحزب الوطنى الذى اختير محمد فريد وكيلاً له، وكان أهم مطلبين للحزب هما الجلاء والدستور الذى يكفل الرقابة البرلمانية على الحكومة وأعمالها إلى جانب نشر التعليم.

وجاءت وفاة مصطفى كامل بعد هذا الخطاب بأربعة أشهر تقريباً فى ٦ محرم ١٣٢٦ / ١٠ فبراير سنة ١٩٠٨ .

هذان الحدثان أثرا تأثيراً كبيراً على محمد فريد وألقيا على عاتقه ذلك الدور الذى لعبه من أجل مصر والذى خلد إسمه فى التاريخ كأحد أبرز رموز الحركة الوطنية الذين كافحوا وناضلوا لأجل حرية مصر وجلاء المستعمر البريطانى عنها وضحوا بكل شئ من أجل تحقيق هذا الهدف النبيل.

ولا شك أن وفاة مصطفى كامل قد تركت فراغاً كبيراً على الساحة الوطنية فى مصر... حيث أمضى أكثر من ستة عشر عاماً فى خضم العمل الوطنى الذى بدأه منذ أن كان فى سن الثامنة عشرة من عمره مما جعله طرازاً فريداً فى رموز الحركة الوطنية فى تاريخ أي شعب من شعوب العالم.

وهكذا يمكن أن نؤكد أن محمد فريد عاش بين جيلين، جيل الثورة العرابية والتى انتهت بخيانة محمد توفيق خديوى مصر للثورة وتخلى السلطان عبد الحميد عنها بإصداره منشوراً يكفر عرابى ويتهمه بعصيان ولي الأمر - وكان إصداره ذلك المنشور تحت ضغط الانجليز بشكل خاص.. والجيل الثانى الذى نتج عن نجاح بريطانيا فى خلق طبقة موالية لها تربط بقاء امتيازاتها بوجود الاحتلال مما جعلها تفرض سيطرتها على مصر بشكل متكامل... هذا بالرغم من أن الاحتلال البريطانى كان قائماً على أساس غير شرعى إذ ظل الانجليز يعترفون بالسيادة العثمانية على مصر معلنين أن بقاءهم فى مصر بهدف إعادة النظام إليها وضمان حقوق الدائنين الأجانب فيها.

وعاش محمد فريد فترة حكم السلطان عبد الحميد الثانى للدولة العثمانية ودعوته لإنشاء الجامعة الإسلامية لصد الأطماع الغربية فى الاستيلاء على الأراضى العثمانية وتأثر محمد فريد بالفكرة إلى درجة تأييدها بشكل مطلق... إلا أنه كان يشعر بحق أن تركيا قد أصبحت رجل أوروبا المريض ولكنه كان يذكر على استحياء محاولات تركيا لمطالبة انجلترا بالجلاء عن مصر.

كما عاش محمد فريد الحرب العالمية الأولى ولكنه كان فى أوروبا حيث ظل يتنقل بين أقطارها حتى وفاته فى ألمانيا وكانت سنوات النفى الاختيارى لمدة سبع سنوات (من سنة ١٩١٢ حتى سنة ١٩١٩) كلها نضال ضد بريطانيا حتى يجبرها على الجلاء عن مصر...

كانت مصر فى الوقت الذى عاش فيه محمد فريد على النحو التالى :

تدب فيها الفرقة وتسرى فى أوصالها روح المنازعات وكان تجار المغانم، والانتهازيون يؤثرون مصالحهم على مصالح وطنهم، ويتخذون من كل غاية وسيلة لتحقيق مآربهم، ولو تعارضت مع مصلحة الوطن العُليا، ومثله فى الحرية والاستقلال.. وكانوا سماسرة لا يهمهم إلا الربح، وتجار لا يرضيهم غير النفع.. يعملون لحسابهم قبل أن يعملوا لحساب الوطن الذى نكب بهم...

كانت ظروف العصر الذى عاشه محمد فريد كفيلة بظهور القليل من زعامات تعبر عن نكبة الشعب وتدافع عن حقوقه وتعيش همومه... وفى ظل ما كان يعانيه الشعب المصرى... كان يبحث عن بطل يقوده إلى طريق الحياة ويخرجه من بؤرة اليأس وكان ظهور مصطفى كامل شمعة قصيرة العمر.. لم يعمر طويلاً حيث انطفأ عمره فى الرابعة والثلاثين والنصف.. ولكن العناية الإلهية هيأت لهذا الوطن إبناً باراً يقودها من جديد ويدافع عن حقوقها ويتصدى لكل المتواطئين على شعبها سواء من قوى الاحتلال أو الفئات التى وجدت مصلحتها فى استمرار وجوده... وهيأ لها القدر إبنها البار محمد فريد الذى نعتبره بحق ملاك الحركة الوطنية.

الفصل الثانى
محمد فريد الميلاد والنشأة والتكوين الثقافى

ولد محمد فريد فى ٢٠ يناير ١٨٦٨م أي أنه يكبر مصطفى كامل بست سنوات (حيث ولد مصطفى كامل فى سنة ١٨٧٤م).

كان ميلاده يوم الإثنين (٢٥ رمضان سنة ١٢٨٤ه)، نشأ فى بيت محمد رفيع العماد فهو ابن أحمد فريد باشا الذى أصبح ناظراً للدائرة السنية سنة ١٨٨٦م[1].

وكان والده من كبراء رجالات مصر المعدودين وقد اشتهر الوالد بعلو النفس والأخلاق القومية مما كان له أثره فى نشأة محمد فريد[2].

والده أحمد فريد باشا ولد فى سنة ١٨٣٦م فى مصر وتعلم فى المدرسة الحربية وقد تدرج فى عدة وظائف مدنية أولها أنه عُين ناظر قلم التجديدات بمصلحة السكة الحديد سنة ١٨٦٣ثم ظل يتدرج وظيفياً فى تلك المصلحة حتى وصل إلى وظيفة وكيل عموم المصلحة وفى سنة ١٨٧٥ حمل رتبة المتمايز (أي نائب وزير). ولكنه —نتيجة التغييرات التى طرأت على نظامها - أحال نفسه إلى التقاعد أي أنه استقال، ولكن لم يكن يمض شهر وبضعة أيام حتى صدر أمر عال بتعيينه عضواً بمجلس الأحكام عام ١٨٧٧ ثم عُين فى نفس السنة مديراً للشرقية ثم نقل منها مفتشاً لحسابات دوائر العائلة الخديوية إلا أنه لم يستقر بها طويلاً حيث نقل منها عام ١٨٧٨ إلى وظيفة محافظ دمياط ومنها إلى مديرية المنيا ثم منها إلى الشرقية وأنعم عليه برتبة الباشوية وفى عام ١٨٨٣ عُين مديراً للغربية.. وكل هذه المناصب تؤكد قربه من العائلة الخديوية وثقة الحكومة فيه. ثم فى عام ١٨٨٦ صدر الأمر العالى بتعيينه عضواً بمجلس الدائرة السنية ووصل إلى أعلى

(١) هى تلك الدائرة الخديوية التى كانت ترعى شئون أراضى الخديوى فى ذلك الوقت وقد أنشأها الخديوى إسماعيل وقد تولى والد محمد فريد منصب مدير الدائرة سنة ١٨٨٦ .

(٢) قدم عثمان أفندى الجد الأعلى لأحمد فريد إلى مصر فى أوائل الفتح العثمانى وتولى وظيفة كتابة العملة وكانت من أرفع مناصب الحكومة ولا تمنح إلا بموجب فرمانات وظلت الوظيفة تنتقل بين أعقابه وذريته حتى انتهت إلى المرحوم أحمد أفندى ابن أيوب أفندى جد محمد فريد .

منصب فيها وهو الناظر لها حتى سنة ١٨٩٤ .. وترك بها ذكرى عطرة وصفحة بيضاء مجيدة حيث تولى إدارتها بشفافية وأبعد عنها الفساد ونجح فى القضاء على العجز الذى بلغ مبلغاً كبيراً وبعث روح الاستقامة والنزاهة والنشاط فى نواحيها فأخذ العجز يتلاشى ثم زاد الإيراد الخاص بالدائرة... وباختصار يمكن القول أن إدارة أحمد فريد كانت موضع إعجاب مما جعل الخديوى محمد توفيق ينعم عليه بالنيشان المجيدى من الدرجة الأولى أواخر فبراير سنة ١٨٩٢ وذلك بصفة استثنائية.

كان أحمد فريد والد محمد فريد مثالاً للحزم والتنظيم والكفاءة والنزاهة فى هذا المنصب السامى.. ومما يدل على مكانته لجوء الخديوى عباس حلمى الثانى إليه ليكون وسيطاً لدى رياض باشا لتأليف الوزارة التى كان ينوى تشكيلها عندما تصادم مع مصطفى فهمى باشا[1]. حيث أراد الخديوى الإبقاء على الوزارة مع تغيير رئيس الوزراء الموالى للانجليز فقط فوعده رياض بالتفكير فى ذلك وانصرف وأحس الخديوى بتردده فكان أن أرسل إليه أحمد فريد ليقنعه بقبول رئاسة الوزارة حلاً للأزمة فقام أحمد فريد باشا بهذه المهمة وأقنع رياض باشا بتأليف الوزارة وانتهت الأزمة.

وكان أحمد فريد كثيراً ما يذكر لابنه كيف أنه عندما تشكلت وزارة نوبار فى أعقاب وزارة رياض فى أبريل ١٨٩٤ لم ينظر رئيس الوزارة الجديدة إليه إلا على أنه من المحسوبين على رياض باشا.. وأن نوبار ظل يسعى للوقيعة بينه وبين الخديوى حتى أصدر الأخير قراراً بإحالته إلى المعاش فى ٢٣ سبتمبر سنة ١٨٩٤، بحجة أن لا منصب له بعد تصفية الدائرة السنية خاصة وأن أحمد فريد كان فى مقدمة المنتقدين لهذا التصرف من جانب نوبار حيث بيعت الدائرة السنية لشركة أجنبية بالرغم من وجود جماعة من الوطنيين الذين يرغبون فى شرائها بثمن أكبر.

---

(١) مصطفى فهمى باشا هو صاحب اطول رئاسة وزارة فى تاريخ مصر كلها حيث تولاها ثلاث مرات والمرة الأخيرة وصلت إلى أربعة عشرة عاماً (من ١٨٩٤ حتى ١٩٠٨م) وكان يعتبر احد أعمدة الاحتلال البريطانى فى مصر إذ كان اللورد كرومر يقول أن لبريطانيا فى احتلالها لمصر سندين الأول هو الجيش البريطانى والثانى هو مصطفى فهمى باشا ومن الجدير بالذكر أن مصطفى فهمى هو والد صفية زغلول ... التى أصبحت فيما بعد زوجة سعد زغلول والتى عرفت باسم أم المصريين وكانت عكس والدها تماماً فى الاحساس بأن مصر للمصريين وقادت مصر فى أعقاب نفى سعد زغلول حتى عاد من المنفى .

وقد ظل أحمد فريد يدير أراضيه بعد ذلك واشتهر بمعاملة فلاحيه معاملة طيبة بل ورعايتهم اجتماعياً حتى وفاته سنة ١٩٠١ وقد شيعت جنازته فى موكب مهيب سارت فيه جموع الفلاحين جنباً إلى جنب مع الكثير من العلماء والأعيان والموظفين وتقدم موكب الجنازة مندوب عن الخديوى هو سعيد باشا ذو الفقار وقد دُفن بمدافن الأسرة بالسيدة نفيسة.وقد نعته المؤيد قائلة :-

" توفى إلى رحمة الله اليوم المغفور له أحمد فريد باشا ناظر الدائرة السنية سابقاً ووالد حضرة الفاضلين محمد بك فريك المحامى الشهير وإبراهيم بك القاضى بمحكمة مصر الابتدائية الأهلية وكان رحمه الله من كبار أركان الحكومة وقد خدمها بالصدق والهمة الشماء ".

وقد ترك والد محمد فريد ثروة ضخمة كانت تبلغ نحو ألف ومائتى فدان منها ٩٥٣ فداناً موقوفة وقد خص محمد فريد من هذا الوقف ١٥٠ فداناً وخصه من الأملاك الأخرى نحو ١٥٠ فداناً أخرى كما ترك له والده قصراً بشارع شبرا مساحة أرضه وحدها خمسة أفدنة.

ولم يلبث أن أضاف فريد إلى ما ورثه من أبيه عمارتين كبيرتين فى شارع حمدى بالظاهر من خلال حُسن إدارته لما ورثه.

أما عن والدة محمد فريد فهى كريمة إبراهيم أفندى وكان والدها من أشهر تجار التوابل فى مصر وكانت سيدة فاضلة عالية النفس محبة للخير، كريمة الأخلاق، من الأشراف حيث كانت والدتها من نسل الحسين بن على (رضى الله عنه) ويقال أنها من سلالة الخلفاء العباسيين[1].

وقد تزوج بها أحمد فريد باشا سنة ١٨٦٠ .. وقد ورث محمد فريد من والدته الكثير من الصفات وبالذات صفاء النفس وكرم الأخلاق[2].

(١) وهنا تتجلى عظمة محمد فريد حيث أن نشأته العائلية ذات الرفاهية لم تكن تؤهله للنضال والكفاح بل كانت تمهد له عيشة رغداً بعيداً عن غمار السياسة وأهوال الجهاد ... ولكن العناية الألهية كانت تعد محمد فريد ليقوم بدوره من أجل وطنه مهما كانت التضحيات .

(٢) كانت زوجة محمد فريد هى قريبة له من جهة والدتها إذا هى بنت عمته وهو ابن خالها ، وقد ظلت له فى حياته الوطنية زوجة وفية صادقة ولم تتزوج بعده حتى وفاتها فى يناير ١٩٣٣ وأوصت بأن تدفن إلى جواره .

وقد كان لمحمد فريد أخ واحد فقط هو إبراهيم فريد بك وكان يعمل قاضياً بالمحاكم الأهلية كما كان له من الاناث أربعة أخوات هن :-

١- زهرة هانم وزوجها كان محمد بك عبد الواحد عرفة.

٢- نفيسة هانم وزوجها هو سليمان بك شوقى.

٣- منتهى هانم وزوجها محمد بك كمال بيومى.

٤- فاطمة هانم وقد تزوجت من سليم أفندى سرى.

وكانت علاقته بأخيه إبراهيم وبأخوته البنات وبأزواجهن خير علاقة أسرية حيث هو الأخ الأكبر والفتى المسئول بعد أبيه عن كل الأسرة.

زواج محمد فريد :-

فى سن العشرين تزوج محمد فريد وعلى وجه الدقة فى يونية سنة ١٨٨٨ بالسيدة عائشة هانم كريمة السيد إسماعيل، وكتبت الوقائع المصرية فى انبهار عن هذا الزواج ما لم تعتد كتابته إلا عن أفراح البيت المالك.

فتحت عنوان "الأفراح عند سعادة فريد باشا " تقول الوقائع المصرية :-

" من نحو أسبوعين أقيمت الأفراح فى دار صاحب السعادة أحمد فريد باشا ناظر الدائرة السنية احتفاء بتأهيل نجله الأول محمد بك فريد ووزعت تذاكر الدعوة على المدعوين لحضورهم فى ليلتى الأحد والاثنين من هذا الأسبوع ".

وكان منزل سعادة الباشا فى شبرا مجتمعاً لوفود المهنئين ومنتدى سرور للحاضرين وقد توافد فى الليلة الأولى لعقد القران العدد العديد من حضرات العلماء الأعلام وتجار العاصمة وكثير من أعيانها وجم غفير من ذوى الرتب والوجاهة من البلاد الريفية.. وفى الليلة الثانية توافد على المنزل كل أكابر العلماء الفضلاء وأعاظم الأمراء وأوائل النظار الكرام.. وبالجملة لا يحسب مبالغاً من يقول أنه وفد فى تلك الليلة جميع كبراء موظفى الحكومة السنية من وطنيين وأجانب ومشاهير الذوات والأمراء والأعيان أما الليالى فكانت بضوئها نهاراً

وبرونقها كمال الجمال، باهت بزينتها وفاقت بمسيرتها أمثالها من ليالى الأفراح وقد كانت الموسيقى تستقبل الضيوف على اختلاف درجاتهم.. والذى زاد من سرور ذوى الفرح عموماً وسعادة فريد باشا خصوصاً أن تم إبلاغ سعادة فريد باشا تهانى الحضرة الفخيمة..

وبرغم هذه النشأة الأرستقراطية وهذه البيئة المتيسرة، فإن محمد فريد كان ينادى بالدفاع عن حقوق العمال والفلاحين ووهب حياته للشعب وخدمة وطنه.

أولاده :-

رزق محمد فريد من زوجته بولدين هما عبد الله فريد نجله الأول ولكنه توفى وله من العمر سنتان، أما نجله الثانى فهو الأستاذ عبد الخالق فريد والذى كان قد درس الحقوق وعُين فور تخرجه وكيلاً للنائب العام وكانت أول وظيفة له فى بنى سويف ثم عُين قاضياً بالمحاكم الوطنية.

كما أنجب محمد فريد أربع بنات، توفيت اثنتان فى حياته هما الآنسة فائقة والتى توفيت سنة ١٩١٥ ولم تتجاوز الثانية عشر من عمرها، والثانية هى لطيفة هانم التى توفيت سنة ١٩١٦، أما أبنته الكُبرى فهى فريدة هانم ثم البنت الرابعة وهى الآنسة حميدة والتى توفيت سنة ١٩٢٩ .. وقد تزوجت فريدة هانم كُبرى كريماته من الدكتور حيدر الشيشنى بك، وتزوجت لطيفة هانم من حسين بك فريد قبل وفاتها.

الوظائف التى تقلدها محمد فريد :-

قبل أن نذكر تلك الوظائف علينا أن نتذكر كيفية تكوينه الدراسى حيث درس فى المدارس الحكومية فى التعليم الابتدائى وأيضاً درس تعليمه الثانوى فى المدارس الحكومية وعرف أثناء دراسته بطيبة القلب والصراحة ودماثة الخلق مما حببه إلى نفوس أخوانه ونال إعجاب أساتذته، وفى سنة ١٨٨٣ حصل على شهادة البكالوريا والتحق بكلية الإدارة (كلية الحقوق) حيث نال شهادة الحقوق سنة ١٨٨٧ .

وبمجرد تخرجه التحق بالدائرة السنية حيث عُين فى وظيفة مترجم بقلم

القضايا فى هذه الدائرة فى ٢١ مايو ١٨٨٧ براتب شهرى قدره عشرة جنيهات، وفى ١٤ يونيو من السنة التالية رقى وكيلاً لهذا القلم وزاد راتبه خمسة جنيهات شهرياً، وبعد ثلاث سنوات من هذه الترقية عين رئيساً لقلم قضايا الدائرة السنية، حيث أُنعم عليه برتبة البكوية فى أول أغسطس ١٨٩١، وفى الرابع من شهر أغسطس ١٨٩١ نقل إلى النيابة العمومية بوظيفة مساعد نيابة من الدرجة الثانية بمرتب شهرى قدره ستة عشر جنيهاً شهرياً، وانتدب بنيابة محكمة مصر الابتدائية وزاد راتبه إلى ثمانية عشر جنيهاً من أول يناير سنة ١٨٩٢، ثم انتدب لنيابة الأزبكية ورقى وكيل نيابة من الدرجة الثالثة سنة ١٨٩٣ وفى العام التالى بلغ راتبه عشرون جنيهاً.

وفى مايو سنة ١٨٩٥ نقل وكيلاً لنيابة الاستئناف وبدأت تتفتح أمامه أبواب التدرج إلى كُبرى المناصب فى الدولة لولا ما اعترض طريق حياته من عقبات واتجاه ميوله إلى الكفاح الوطنى.

ميوله الوطنية :-

ظهرت ميول محمد فريد الوطنية منذ حصوله على شهادة الحقوق واتجهت كل أفكاره إلى خدمة الوطن ولم يجد خيراً من الكتابة والتأليف كباب أساسى للعب دور وطنى وساعده على ذلك ثقافته العالية وشغفه بالاطلاع وولعه بالبحث التاريخى، وكان مما ساعده فى طرقه هذا الباب إلمامه التام باللغتين العربية والفرنسية، وقد راسل مجموعة من الصحف منذ تخرجه من مدرسة الحقوق ولكنه وجد من والده بعض الاعتراض خوفاً عليه من أذى الانجليز والحكومة، ولكن محمد فريد بدأ فى مراسلة مجلة أدبية اجتماعية كانت تظهر فى مصر فى ذلك الوقت هى مجلة الأداب حيث كتب فيها عدة مقالات فى سنتى ١٨٨٧-١٨٨٨ وكان يوقع هذه المقالات بتوقيع " م.ف " ومن الجدير بالذكر أن صاحب هذه المجلة ورئيس تحريرها هو الشيخ على يوسف.

وفى سنة ١٨٩١ كتب محمد فريد أول كتاب له بعنوان "البهجة التوفيقية فى تاريخ مؤسس العائلة المحمدية " وهو تاريخ وافى لمحمد على باشا ودولته

وتفاصيل سياسته وأفكاره وكيف حكم مصر وكيف أصبحت عظيمة وقد علقت صحيفة المؤيد على الكتاب ومؤلفه حيث قالت :-

" إنه الكاتب البليغ والباحث المدقق الشاب الأبى الأديب محمد بك فريد صاحب المباحث المفيدة والمقالات الرنانة وهو الشاب الذى تخلى منذ نعومة أظفاره عن علائق نشأة الفتوة وشغف بالفضائل والآداب فأدرك منها النصيب الأوفر والقدح المعلى وتربى على تهذيب الأفكار وحرية الضمير"

ويذكر فريد فى مذكراته كيف أن الخديوى محمد توفيق قد منحه لقب البكوية بل وأمر بتعيينه بوظيفة وكيل مستشار بقلم قضايا الأوقاف.. ولكن عندما علم الانجليز بهذا الأمر، أرسل اللورد كرومر المعتمد البريطانى فى مصر فى ذلك الحين إلى مصطفى باشا فهمى (رئيس الوزراء آنئذ) يحتج على ذلك فأوقف التعيين.

وفى سنة ١٨٩٤ كتب محمد فريد كتابه الثانى بعنوان " تاريخ الدولة العثمانية " وهو يحكى عن سلاطين الدولة العثمانية ودور الدولة العلية فى حماية الإسلام ويتكلم عن تصدى هذه الدولة لأطماع أوروبا بالعالم الإسلامى.

وفى سنة ١٩٠٢ أخرج كتابه الثالث وهو عن " تاريخ الرومان " وتكلم باستفاضة عن الحكم الديكتاتورى لبعض أباطرة روما مؤكداً نفوره من حكم الفرد وأن الذى أضعف الأمبراطورية الرومانية وأطمع فيها الأجانب هو ظلم الحكام للشعب، هذا كله إلى جانب مقالاته العديدة فى الكثير من الصحف وعلى رأسها صحيفتى " المؤيد " ثم " اللواء "، وقد شارك كل من محمود أبو النصر وأحمد حافظ عوض فى تأسيس مجلة علمية نصف شهرية أطلق عليها اسم "مجلة الموسوعات" وله فيها عدة أبحاث تدل على سعة إطلاعه وميله للبحث نذكر منها بعض مقالاته عن أواسط آسيا (عددى ١٣ و ٢٧ يناير سنة ١٨٩٩) وكذلك مقالاته عن الانجليز فى غرب إفريقيا واحتلال فرنسا لبعض دول هذه المنطقة كما كتب عن حرب البوير واستيلاء انجلترا على جنوب افريقيا (عدد ١٩ نوفمبر ١٨٩٩) وكذلك كتب عن الروسيا وأطماعها فى آسيا الوسطى وعن مطامع أوروبا

فى الصين وعن الكثير من أوضاع أمريكا اللاتينية والولايات المتحدة الأمريكية.. وفى كل هذه المقالات كان يومئ دوماً بأوضاع الاحتلال البريطانى لمصر وعدم شرعيته.

ولا شك رواد الحركة الوطنية فى مصر كانوا يتمتعون بما يتمتع به محمد فريد من فكر ثاقب واطلاع واسع وغيرة على الوطن وإحساس بالأطماع الأجنبية التى تحيق به.

وكان لمحمد فريد ولع كبير بالسياحة حيث سافر إلى تونس والجزائر وزار سوريا ولبنان وزار مراكش وطرابلس، وكانت أول أسفاره إلى أوروبا فى عام ١٨٩٥ والتى لم يلبث أن بدأ يزور أقطارها كل عام إما ليلحق بمصطفى كامل أو ليتواصل مع مؤتمرات تسعى لاستقلال مصر أو للاستشفاء فى "فيشى" فى فرنسا من مرض الكبد الذى كان قد ألم به.

علاقة محمد فريد بمصطفى كامل :-

لا يمكن أن نحكى رحلة كفاح محمد فريد بدون ذكر مرافقته واتصاله بمصطفى كامل حيث كانت تلك الحقبة هامة ومبكرة فى نضال محمد فريد من أجل مصر، ولولا مصطفى كامل ما وجد محمد فريد، ولولا محمد فريد ما تواصلت الحركة الوطنية فى مصر بعد وفاة مصطفى كامل فى عمر الزهور.. وبفضل صداقتهما اشتعلت شموع الأمل بين الجماهير المصرية بعد أن عانى الشعب من اليأس فى أعقاب وقوع مصر فريسة للاحتلال البريطانى (عام١٣٠٠هـ/ ١٨٨٢م) وإجبارها على أن تسير فى نفق مظلم لسنوات طويلة حتى ظهور مصطفى كامل على الساحة السياسية المصرية سنة ١٨٩٢م أي بعد عشر سنوات من وقوع الاحتلال ليخرجها من هذا النفق.

وخلال السنوات الأولى من الاحتلال اختفت الصحافة الوطنية المصرية وحل جيش العرابيين وتنكر الكثير من الأعيان للحركة الوطنية وعاش المصريون فترة من عدم التوازن بينهم وبين واقعهم المرير حيث عم اليأس والقنوط فى نفوسهم.

بدأت صداقة محمد فريد بمصطفى كامل منذ عام ١٨٩٣ ومنذ ذلك العام

ظلا صديقين حميمين وزميلين مخلصين فى الجهاد، وفى سنة ١٨٩٦م تعاهد معهما الدكتور محمود لبيب على أن يقوم ثلاثتهم بخدمة الوطن حتى الممات، وكان أول مشروع شرعوا فيه هو تأسيس جريدة أسبوعية باللغتين الفرنسية والألمانية كان يديرها شاب ألمانى هو الماجور هانز رزنر، واستمر إصدار الجريدة حتى وفاة المسيو رزنر الذى كان من المهتمين بقضية مصر الوطنية وكتب كتاب عن مصر والاحتلال البريطانى قام بترجمته الفرسان الثلاثة مصطفى كامل، محمد فريد، ومحمود لبيب بالتساوى.

وقد توثقت عرى الصداقة والإخاء بين مصطفى كامل ومحمد فريد، فكان فريد الزميل المخلص والصديق الوفى والعضد الأكبر لمصطفى كامل فى الكفاح الوطنى، أيده فى جهاده، وكان بحق عوناً كبيراً له من الناحية الأدبية والمادية، وظل وفياً له طوال حياته.. وبعد وفاة مصطفى كامل حمل فريد الشعلة الوطنية مؤمناً بأفكار ومبادئ وقيم مصطفى كامل، وكان كلاهما يؤثر صاحبه على نفسه.. وتلك كانت دلائل الإخلاص الحقيقى بينهما.

وفى خطبة ألقاها محمد فريد يوم ١٤ فبراير سنة ١٩٠٨ نجده يقول أنه عرف مصطفى كامل منذ أن أنشأ مجلة المدرسة أي سنة ١٨٩٣ ثم تأكدت الصداقة بينهما منذ سنة ١٨٩٥ حيث تقابلا فى باريس، وكان الخطاب الذى ألقاه مصطفى كامل فى مدينة تولوز فى ٤ يوليو ١٨٩٥ – وهو أول خطاب سياسى لمصطفى كامل –موضع إعجاب محمد فريد وبداية سيره والتزامه بالمبادئ التى نادى بها مصطفى.

وقد بدأت بينهما العديد من المراسلات، وكان أولها الرسالة التى أرسلها مصطفى كامل إلى محمد فريد من "فيينا" بتاريخ ٢١ أكتوبر سنة ١٨٩٦ ليُعرفه فيها بما بذله فى ألمانيا والنمسا من جهود لتعريف الرأى العام الأوروبى بالقضية الوطنية المصرية، أما الكتاب الثانى فقد أرسله مصطفى كامل إلى محمد فريد من بودابست (عاصمة المجر) فى ٢٦ أكتوبر من السنة نفسها قال فيه " أخى محمد فريد، حفظه الله، بعد التحية والتسليم والاعراب عن شوق عظيم، لابد وأنك استلمت كل ما أرسلت إليك وطالعت صدى ما عملت، وعلمت بكل ما جرى،

ولابد أنك سررت وفرحت، وأن روحك الطاهرة الشريفة الممتلئة حباً لمصر رضيت عن روح لا تقل عنها حباً للوطن وإخلاصاً، وأخالك تفكر كثيراً فىّ وتود ولو تكون معى تطوف البلدان منادياً بنصرة المظلوم رافعاً صوتك ضد عدو الوطن".

وفى ٣ نوفمبر سنة ١٨٩٦ أرسل مصطفى كامل إلى محمد فريد خطاباً من الآستانة قال فيه : " كنت أحس بواجب مراسلتك لشوقي إليك لأنى أتلذذ حقاً لمكاتبة صديق مثلك لمودته وحبه للوطن العزيز فأي شرف أجل منه هذا الإحساس عند الإنسان ! " وكتب إليه من باريس فى ١٩ يوليو سنة ١٨٩٧ رسالة قال فيها " أخى الأعز.. بعد إهدائك أعطر السلام وصلنى هذا الصباح كتابك الكريم فتقبلته بالترحاب والتكريم وكنت فى شغف شديد لاستلامه لغياب أخبارك عنى ثلاثة أيام وليس ذلك بالزمن القليل. ولقد أدهشنى فى كتابك شكرك لي على مبادرتى بإجابة طلبك لي.. إن هذا الشكر من غيرك جميل وواجب ولكنه منك غريب وعجيب. فما بيننا من الود والأخاء يجعل مالك مالى ومالى مالك وحياتى حياتك وحياتك حياتى هذا ما أعتقده وما تعتقده أنت فروحى تناجى روحك بالود والإخلاص فى كل لحظة وفى كل آن، دمت أخاً وفياً صادقاً ودمت معى لنكون خادمين صادقين للوطن المحبوب ".

وختم مصطفى كامل خطابه المذكور إلى محمد فريد بقوله :-

" أكتب لي باكر من فيشى وأطل كتابك ".

لقد كانت هذه الخطابات تسجيل واقعى للعلاقة التى كانت تربط مصطفى كامل بمحمد فريد.

محمد فريد محامياً :

ظهر محمد فريد مدافعاً عن حقوق الوطن فى كل كتاباته مما أقلق السلطات الانجليزية والمصرية على حد سواء من اتجاهاته هذه خاصة وأنه كان ملازماً لمصطفى كامل فى كثير من جلساته الوطنية.

وأول صدامه مع السلطات وقت أن كان وكيل نيابة الاستئناف وأعلن عن رأيه بصراحة فى بعض قضايا النشر وأنه لا حق للدولة أن تحكم بالسجن على

صحفى يهتم بالشأن العام، أو تصادر أي رأى حر يهتم بمصلحة الوطن، وهناك واقعة تعرف فى التاريخ المصرى باسم قضية "المؤيد" وخلاصتها أنه خلال الحملة المصرية الانجليزية على دنقلة أرسل اللورد كيتشنر سردار (قائد) الجيش المصرى تلغرافاً سرياً إلى وزير الحربية المصرى فى شهر يوليو سنة ١٨٩٦ يختص بالحملة وصحة أفراد الجيش من المصريين الذين تعرضوا لمرض الكوليرا هناك ووقوع عدد كبير من هؤلاء الجنود ضحايا هذا المرض جثثاً هامدة.

وقد وقع هذا التلغراف فى أيدى أحد الوطنيين المناهضين للاحتلال البريطانى يدعى توفيق كرلس والذى كان يعمل فى مكتب تلغراف الأزبكية (الذى تلقى برقية السردار) فسلم نسخة من هذه البرقية إلى الشيخ على يوسف صاحب ورئيس تحرير جريدة المؤيد والذى قام بنشرها فى عدد ٢٨ يوليو سنة ١٨٩٦ تحت عنوان " أحوال الجيش المصرى فى الحدود "، ورأت الحكومة المصرية والسردار أن نشر هذا التلغراف إذاعة لأسرارها فأمرت بإجراء تحقيق سريع أدى إلى اتهام توفيق أفندى كرلس بإفضاء أسرار الدولة واتهم الشيخ على يوسف معه مما أدى إلى قيام النيابة العمومية برفع الدعوى على الاثنين وأثارت هذه القضية فى حينها النعرة الوطنية لدى الكثيرين من المؤمنين بحرية الصحافة من ناحية ومن المعادين للوجود البريطانى فى مصر من ناحية أخرى، ووصل الأمر أن حضر الكثير من رجال القضاء إلى ساحة المحكمة فتضايق الاحتلال من كل من حضروا المحاكمة والذين كان من بينهم محمد فريد.

وانتهت القضية بصدور الحكم من محكمة عابدين الجزئية ببراءة الشيخ على يوسف وحبس توفيق أفندى كرلس ثلاثة أشهر[1].

ولكن هذا الحكم أثار سخط الاحتلال على القاضى الذى أصدره وعلى كل من حضر الجلسة ومن ثم طلب من النائب العام نقل محمد فريد إلى أحد نيابات الوجه القبلى فى نوفمبر سنة ١٨٩٦ حيث نقل إلى نيابة بنى سويف نكاية به

(١) ولعل هذه الواقعة تؤكد لقارئ التاريخ المصرى أن مصر نسيجاً واحداً وأن القبطى جنباً إلى جنب مع المسلم كان يشعر أنه يقف فى خندق واحد ضد الاحتلال البريطانى الغاصب لحقوق المصريين والسالب لحريتهم . .

وتقرر أن يكون مقره فى آخر حدود المديرية جنوباً أي فى مغاغة (كانت مغاغة فى ذلك الوقت تتبع بنى سويف ولكنها الآن ضمن حدود محافظة المنيا).

وتقرر كذلك نقل قاضى محكمة عابدين الذى أصدر الحكم إلى محكمة مصر الابتدائية بدعوى أن نظام الجلسة لم يكن سليماً، وبإشاعة أنه أفضى بالحكم قبل صدوره إلى محمد فريد، إلا أن محمد فريد فيما بعد كتب فى مذكراته ان ذلك كان محض كذب وافتراء[1].

ورفض محمد فريد أمر النقل واعتبره إهانة لشخصه وأنه يمس استقلال القضاء فقدم استقالته فى ٢٢ نوفمبر ١٨٩٦، ومنذ ذلك التاريخ اتخذ من المحاماة مهنة له حيث قيد اسمه فى جدول المحامين أمام المحاكم الأهلية فى يوليو سنة ١٨٩٧ ولنا هنا بعض الملاحظات حول تلك الخطوة التى اتخذها محمد فريد :-

أولاً : لقد أكبر الوطنيون منه تقديمه استقالته من منصب يسيل عليه لعاب الكثيرين، وازداد الرأى العام إعجاباً بسمو أخلاقه وشديد وطنيته وشجاعته وعلت منزلته بين كافة المثقفين المصريين، وأرسى لدى المحتلين أن القضاء المصرى شامخ دائماً حريص على استقلاله.

ثانياً : وردت إلى محمد فريد الكثير من الرسائل التى تحييه على موقفه وتقدر وطنيته وشجاعته فى مواجهة المحتلين. نذكر منها على سبيل المثال ما كتبه إليه محمود أبو النصر من باريس بتاريخ ٢ ديسمبر ١٨٩٦ يصور له تقدير الناس لموقفه المشرف جاء فيه :-

" هاج بالى واضطرب خاطرى إذ علمت بما قابلك به الاحتلال جزاء إخلاصك للوطن وتظاهرك بنصرة الحق دون أن تخشى لومة لائم، ولا سطوة حاكم، غير أننى مالبثت إلا أن رأيت الأمر طبيعياً وأذعنت بأن لا وجه للتهيج ولا معنى للتعجب، أليسوا باضطهادهم لمثلك يضمنون بقاءهم فى مصر، بلى وما الذى كنت

(١) من الجدير بالذكر أن النيابة أستأنفت حكم القاضى الجزئى ضد على يوسف وتوفيق كيرلس ونظرت القضية فى أول جلسة لها أول ديسمبر سنة ١٨٩٦ أمام محكمة الجنح المستأنفة وصدر الحكم فى ١٥منه والذى قضى ببراءة الشيخ على يوسف والغاء الحكم بالنسبة لتوفيق أفندى كيرلس وبراءته فكان لهذا الحكم إستحسان عام لدى الرأى العام.

تنتظر غير ما عوملت به وقد عرف الخاص والعام شرف أحساسك ونبل قصدك وإخلاصك، وشهد القريب والبعيد بفضلك وهمم نفسك وعزة مقامك حتى أنزلك الأخوان منزلة وحدك، تغبط عليها من بين أبناء الوطن عامة وأنجال الذوات خاصة. أنه لأقل ما كنت أنتظره لك من يوم رأيتك وعرفتك فماذا تقول؟ اللهم إن كانت سعادة الحياة فى مثل ذلك الراتب الذى كنت تأخذه على شرط إماته كل عاطفة شريفة فلا كانت الحياة، اللهم إن كنت تربيت ونشأت فى مهد الكمالات الإنسانية لمثل تلك الخدمة فلا كانت التربية. اللهم إن مطالب هذه الحياة منحصرة فى أمرين سعة الرزق ورفعة المنزلة. أما سعة الرزق فمن الذى مات جوعا ؟ والحمد لله لست إلى هذا الحد، وأما رفعة المنزلة فهو مطلب قد بلغته اليوم أكثر من ذي قبل، فلقد سموت بهذا الاضطهاد منزلة فى قلبى أرفع من منزلتك الأولى، ومثلى من المحبين الصادقين كثير، فاصبر ولا تجزع واهنأ ودُم كما كنت فريداً ".

ثالثاً : كانت الاستقالة هى الخطوة الأولى الشجاعة التى أعلن بها الفتى الأرستقراطى رفضه لتبعات الأرستقراطية فى وطن محتل.

رابعاً : شعر والده بالاستياء لما حدث لأن ابنه كان أول من اشتغل بالمحاماة من أبناء الكبراء، وأنه آثرها على مناصب الحكومة وهذه الميول لم تكن شائعة أو مألوفة لدى كبار الأثرياء أو الأغنياء الذين كان ينتسب إليهم محمد فريد، وإذا ما أدركنا أن مهنة المحاماة فى ذلك الوقت لم تكن منضبطة وكان يعمل بها كثيرون ممن لم يكن لهم مؤهلات لأدركنا فداحة التضحية التى قام بها محمد فريد[1].

وقد قال الشيخ على يوسف فى جريدة المؤيد فى عام ١٨٩٧ حول اشتغال محمد فريد بالمحاماة ما يلى :-

" قد اتخذ العالم الفاضل القانونى محمد بك فريد المحامى أمام محكمة الاستئناف والمحاكم الأهلية محلاً لأشغال المحاماة فى ملك المرحوم ثاقب باشا

---

(١) كان الباشا والد فريد يبكى من فرط الإهانة التى لحقت بالأسرة العريقة لأن أحد أبنائها افتتح دكان أفوكاتو .
أنظر : محمد على غريب : (محمد فريد الفدائى الأول) ، القاهرة ١٩٨٦ ، ص١٦

أمام الأجزاخانة الطليانية بشارع محمد على، وما نعهده فى كفاءة حضرة الفاضل وسعة علمه وقوة حجته سيكون خير كفيل لنجاحه فى مهنته الجديدة فيخدم بذلك وطنه ويخدم الحقوق الشخصية والعمومية أجل خدمة ويكون لحضرات الفضلاء أبناء كبراء مصر خير قدوة وأشرف مثال ".

وقد أشتهر محمد فريد خلال عمله بالمحاماة بالنزاهة والأمانة وكان لا يقبل قضية لا يرى صاحبها على حق، ويذكر عبد الرحمن الرافعى دلالة على ذلك أن إحدى الأميرات عرضت عليه قضية صكوك (كمبيالات) بمبالغ طائلة على ورثة شخص كان قد حرر على نفسه هذه الصكوك ولأنه كان يعلم بأصلها وأن سببها غير مشروع فقد رفض القضية مع أن أتعابه فيها كانت كبيرة.

ولكن محمد فريد لم يستمر إلا نحو سبع سنوات فقط فى مهنة المحاماة، ورأى اعتزالها ليتفرغ للعمل العام وخدمة بلاده وأبناء وطنه، ويبدو أن هناك سبباً آخر أدى به إلى اعتزال المهنة يمكن أن نعزوه إلى عقوق بعض عملائه ونكران الجميل من جانبهم وعدم وفائهم بالنسبة لدفع أتعابه، إلا أنه لم يلبث أن عاد بعد سبع سنوات أخرى أي فى سنة ١٩١١ إلى العمل محامياً من جديد حيث اتخذ مكتبه بجوار إدارة جريدة العلم بشارع الصنافيرى بالقاهرة، ولكن لم يستمر فى عمله فى مكتبه إلا عام واحد حيث أضطر إلى الهجرة خارج مصر.

تلك كانت خطوات محمد فريد وأقداره إلى أن تبدأ رحلة كفاحه والتى بدأت تطورها بعد وفاة مصطفى كامل لتأخذ طريقين أولهما طريق الكفاح فى الداخل والثانى طريق الكفاح فى الخارج.

ويمكننا فى النهاية قبل الدخول فى الكتابة عن أوراقه ومذكراته ومؤلفاته وما كتبه فى حياته أن نضع هذه الصفات والملامح لشخصية محمد فريد :-

١- كان ينتمى إلى الطبقة الأرستقراطية إسماً وليس عملاً... فقد كان على غير صفات وسلوكيات أولاد الأغنياء وإحساسه بالكادحين والفقراء.

٢- كان من بيت شريف من نسب الأم والأب وثروته لم تكن من منح الأسرة الحاكمة أو ولى النعم بل كانت بالكد والعرق.

٣- تمسكت عائلته بقيم الشرف والأخلاق والإخلاص فى أداء الواجب وتحمل المسئولية حيث كان رب العائلة مثل أعلى.

٤- خرج محمد فريد من عباءة والده ولكنه عاش بضميره الذى ورثه منه... وعزة نفسه.

٥- كان محمد فريد قمحى اللون جميل الصورة متوسط القامة مهيب الطلعة عريض المنكبين بدين الجسم.. ولكنه رغم السمنة إلا أنه كان موفور النشاط جم الحركة لا يكل من العمل ولا يمل.. براق العينين كثير الابتسام سريع الكلام شديد الذكاء قوى الشخصية.

الفصل الثالث
أوراق.. ومذكرات محمد فريد

المذكرات السياسية والأوراق الخاصة بالزعماء والمسئولين والقادة.. وكبار الموظفين هى بلا شك مصدر من مصادر المعرفة التاريخية وإن كنا يجب أن نتوخى الحذر فى الاعتماد عليها لأنها :-

١- قد تعبر عن وجهة نظر تاريخية فى الأحداث من جانب كاتبها.. ولذا لابد من مقارنتها مع غيرها فى نفس السنوات التى كتبت فيها.

٢- إن الكثير من سطور هذه المذكرات أو الأوراق كثيراً ما تغرق الباحث فى تفصيلات شخصية قد لا تخدم حركة موكب التاريخ أو يمكن الاستفادة منها.

٣- إن معظم هذه المذكرات هى دفاع ومبررات لتصرفات هذه الشخصية فى محاولة لتبرئة نفسها من أي أخطاء أو خطايا قد تنسب إليها.

٤- فى حنايا هذه المذكرات نجد تعظيم للدور الذى قام به صاحب المذكرات ونسب بعض البطولات لنفسه خاصة لو أن المعاصرين له قد توفاهم الله ولا يوجد منهم من يعرض وجهة نظره.

وإذا كانت كتابة المذكرات السياسية والشخصية ظاهرة حضارية يتمسك بها المجتمع الغربى أكثر من المجتمع العربى.. حيث عرفها الغرب منذ سنوات الحروب الصليبية أي القرن الحادى عشر.. فإن مجتمعنا وبالذات فى شرقنا العربى وعلى رأسه مصر لم يعرف مثل هذه المذكرات إلا خلال القرن التاسع عشر والعشرين..

وقد تنوعت صور الكتابة للمذكرات السياسية ما بين كتابات رؤساء الدول ورؤساء الوزارات وأصحاب الوزارات السيادية وبالذات وزراء الخارجية ومن يدور فى فلكهم مثل مذكرات بعض السفراء... وقد دخل على المذكرات السياسية لون

آخر من المذكرات اهتمت بالجانب الاجتماعى والاقتصادى.. وأصبحت تمثل أهمية للمؤرخين بعد أن أصبح التاريخ لا ينصب على الجانب السياسى فقط، بل أصبحت هناك دراسات اجتماعية واقتصادية وثقافية لكل دائرة التاريخ السياسى.

إن المؤرخ لا يمكن أن ينكر ثلاث مذكرات سياسية كانت أقرب إلى الصراحة والموضوعية مثل مذكرات سعد زغلول ومذكرات محمد فريد ومذكرات عبد الرحمن فهمى... وهذه المذكرات كانت من الشجاعة بحيث أفصحت بلا مواربة عن أصحابها والدور الذى لعبوه ووجهة نظرهم فى الأحداث التى عاصروها.. والذى لا شك فيه أن تحليل وتفسير سطور أي مذكرات يعتمد على معرفة الانتماء السياسى والاجتماعى لكاتب المذكرات..

وكانت مذكرات محمد فريد وأوراقه تمثل لوناً خاصاً بين أنواع المذكرات السياسية حيث أنه لم يشغل أي وظيفة عامة وإنما كان فاعلاً مؤثراً ولاعباً جيداً فى الأحداث فهو الذى قاد الحركة الوطنية باقتدار بعد وفاة مصطفى كامل وبلا شك أن الفضل للإثنين فى إثارة المشاعر الوطنية وتنوير الرأى العام ويمكن القول أن لهما الفضل فى التمهيد لثورة ١٩١٩ .

بدأ محمد فريد كتابة مذكراته بعد استقراره فى أوروبا ابتداءً من سنة ١٩١٢ .. والفترة من ١٩٠٤ إلى ١٩١٣كتبها فى صورة يوميات، وقد كتب كثيراً منها من الذاكرة بدليل أنه كثيراً ما كان يستخدم جملة " على ما أتذكر ".

ثم تأتى مذكرات محمد فريد من ١٩١٣ حتى وفاته سنة ١٩١٩ بمثابة معايشة لتاريخ القضية المصرية وهى شهادة ناطقة فيما يخص كفاحه هو وزملائه من أجل القضية المصرية وموقف دول أوروبا من هذه القضية والتجمعات الجماهيرية التى ناضلت فى سبيل إحياء القضية وتأكيد رفض الاحتلال البريطانى.

ويمكن القول أن مذكرات محمد فريد هى من أهم المصادر التاريخية فى تلك الفترة للقضية الوطنية المصرية فقد جاء فيها :-

أ - علاقة الحزب الوطنى بالخديوى عباس حلمى الثانى.

ب- بعض القوانين التى صدرت فى تلك الفترة وبالذات عودة قانون المطبوعات والتعديلات التى أدخلت عليه وقانون الاتفاقات الجنائية.

د - التفصيل الكامل لمشروع مد امتياز قناة السويس.

وقد توقف فريد عن كتابة مذكراته فى ١٥ سبتمبر ١٩١٩ أي قبل وفاته بشهرين ولعل ذلك بسبب سوء حالته النفسية والاقتصادية والمرض الذى أصابه وما كان يعانيه من آلام جسدية فى غرفة السطوح التى كان يقيم فيها فى إحدى بنايات مدينة برلين عاصمة ألمانيا.

ويلاحظ على مذكرات محمد فريد فى بعض السطور عدم مراعاة التسلسل التاريخى كما أن المذكرات تشرح بصراحة حالة الإفلاس السياسى التى وقع فيها الحزب الوطنى خلال غياب محمد فريد فى أوروبا... كما أن هذه المذكرات تدور فى مجملها حول مكائد العثمانيين ضد محمد فريد ونشاطهم ضد الخديوى وكذلك سياسة الاتحاد والترقى نحو مصر بصفة خاصة والمشرق العربى بصفة عامة.

ومما اكسب مذكرات محمد فريد الكثير من الصدق أنه كان مفكراً ومطلعاً وعلى علاقة بكثير من القوى السياسية ابتداءً من الخديوى ومروراً بكافة الأحزاب والشخصيات السياسية التى تلعب على مسرح السياسة المصرية وانتهاءً بالدولة العثمانية.. وكذلك اتصاله بالقوى الأوروبية والرأى العام الأوروبى وكل ذلك يجعل ما كتبه فى مذكراته تجربة حية لمذكرات صادقة هادفة.

أما عن أوراق محمد فريد فهى تتضمن المراسلات بين محمد فريد وأصدقائه من السياسيين والعكس، وقد نجح فريد فى ضم الكثير من الأحداث التى عاصرها فى مذكراته بين عامى ١٨٩٦-١٩١٩ وهذه الأوراق ألقت الضوء على كثير من أحداث عهده.

وأول من فكر فى نشر تراث محمد فريد التاريخى الأستاذ الدكتور محمد أنيس أستاذ ورئيس قسم التاريخ بكلية الآداب جامعة القاهرة الأسبق - رحمه

الله - وقد شاركه المرحوم الدكتور رءوف عباس نشر الجزء الأول من هذه المذكرات محققاً تحت عنوان "مذكراتى من ١٨٩١ إلى ١٨٩٧م" ثم تناول الفترة التاريخية من ١٩٠٤ إلى ١٩١٣ وهى ما عرف باسم مذكراتى بعد الهجرة ثم المرحلة الأخيرة من تلك المذكرات من ١٩١٣ حتى وفاته سنة ١٩١٩ .

وتضمن الجزء الثالث مراسلات.. ومنها نحو تسعة وأربعون مظروفاً تضم مراسلات بين محمد فريد ومصطفى كامل وبعضها مع على كامل والبعض الثالث بينه وبين رفيق جهاده إسماعيل لبيب وعلى الشمسى ومحمود الشيشينى وعزيز المصرى وخطابات محمد فريد إلى الدكتور خليل مدكور وأيضاً من محمود حسيب وعبد الحميد سعيد والدكتور منصور رفعت ومن محمود أبو النصر وأحمد توفيق ومحمود أنيس وإسماعيل صدقى وغير هؤلاء والملاحظ أن بعض المراسلات باللغة الفرنسية والبعض الآخر باللغة الإنجليزية ولكن معظمها باللغة العربية.

أي أنها رسائل متبادلة بين محمد فريد وبعض الشخصيات الحزبية والوطنية والفكرية.. ومن الجدير بالذكر أن محمد فريد احتفظ بمذكراته التى كتبها من ١٩١٣ حتى سنة ١٩١٩ ضمن أوراقه الخاصة حين كان فى أوروبا وقد وضعها فى صندوق أودعه لدى السيدة الألمانية التى كان يسكن عندها وعندما أحس بدنو أجله طلب صديقه إسماعيل لبيب الذى كان يقيم فى سويسرا وعلى وجه التحديد فى جنيف والذى سافر إليه على الفور فطلب منه محمد فريد أن يحتفظ بالصندوق الذى يضم هذه الخطابات وأن يحرص على تسليمه لابنه فى مصر عبد الخالق فريد، وقد نفذ لبيب الوصية حيث نقل الصندوق إلى مصر ولكنه لم يسلمه على الفور إلى نجل محمد فريد حيث كان صغيراً لا يعرف أهمية ما أودع فى الصندوق.. ويشاء القدر أن يتوفى إسماعيل لبيب فتتولى زوجته هذه المهمة حيث قامت بتسليم المذكرات إلى عبد الخالق ابن محمد فريد.

وظلت المذكرات فى بيت عبد الخالق فريد فترة طويلة من الزمن دون أن يعلم أحد بخبر وجودها إلا بعض أصدقاء محمد فريد الخاصين والمقربين والمخلصين

من الحزب الوطنى مثل عبد الرحمن الرافعى.. ولماذا كانت السرية.. لأن ظروف مصر السياسية لم تكن تساعد على نشرها أو حتى الإعلام عن وجودها.. وظل الوضع على ما هو عليه لمدة تزيد على ست عشرة عاماً أي حتى عام ١٩٣٥ حين بدأ الرأى العام المصرى لأول مرة يطلع على بعض سطور هذه المذكرات فى مجلة "كل شئ والدنيا" التى بدأت فى نشر بعض أجزاء من هذه المذكرات فى الفترة من ١٦ يناير حتى ٢٠ مارس سنة ١٩٣٦ .

وقد حظى النشر فى ذلك الحين باهتمام قليل حيث كان سيد الساحة السياسية المصرية هو حزب الوفد وانشغال الجماهير والرأى العام المصرى بقضية الدستور[1]، كما أن الحزب الوطنى فى ذلك الوقت كان فى ذيل قائمة الأحزاب المصرية.

ولكن عبد الرحمن الرافعى المؤرخ المصرى المعروف والصديق الوفى لمحمد فريد وعضو الحزب الوطنى فى نفس الوقت استعار هذه المذكرات من عبد الخالق فريد على أساس أنه ينوى وضع كتاب عن محمد فريد وذلك سنة ١٩٣٧ وظلت وديعة لديه لمدة ثلاث سنوات أي حتى سنة ١٩٤٠ ... فكان ذلك هو أول استخدام علمى لها.

وخصص الرافعى الكثير من صفحات كتابه عن محمد فريد لما قال عنه "الكراسات الخمس" التى تحوى تاريخ مصر من ١٨٩١ حتى ١٨٩٧م ولكنه فى نفس الوقت كان يستشهد ببقية المذكرات.

وللحقيقة والتاريخ أن عبد الخالق فريد لم يمنع أحداً من الاطلاع على مذكرات والده والأوراق التى كتبها وبالذات طلاب الدراسات العُليا... بل لقد قام بإعطاء نسخة إلى الأستاذ " أرثر جولد سميث " الذى أتى إلى القاهرة ليكتب رساله للدكتوراه عن الحزب الوطنى وكان يعمل بجامعة هارفرد، وذلك بلا مقابل نظير أن يقوم بإيداعها ضمن محفوظات الجامعة بعد إتمامه رسالته... ولكنه لم

(١) كانت مصر مشغولة فى ذلك العام بالمطالبة بعودة دستور سنة ١٩٢٣ الذى ألغاه دستور آخر هو دستور ١٩٣٠ الذى كان يقيد سلطات الشعب ولذا كانت مصر تغلى بالمظاهرات مطالبه بعودة دستور ١٩٢٣م .

يسلمه الخمس كراسات الأولى من ١٨٩١-١٨٩٧ وإنما سلمه إحدى عشر كراسة تشمل من ١٩٠٤ حتى ١٩١٣ إلى جانب تسليمه المكاتبات الخاصة بمحمد فريد(١)

وكانت واقعة تسليم نسخة من المذكرات إلى هذا الأجنبى سبباً فى إثارة بعض المؤرخين حيث طالبوا بضرورة استيلاء الدولة على الوثائق والمذكرات الخاصة بتاريخ مصر الحديث والمعاصر الموجودة فى حوزة ورثة من شاركوا فى صنع أحداثه... وطالبوا بتطبيق القرار الجمهورى الذى صدر فى عام ١٩٥٤ والخاص بإنشاء دار الوثائق القومية حيث تنص المادة السادسة منه على إعطاء وزير الثقافة الحق فى أخذ أي وثائق من أصحابها مع تعويضهم لتصويرها وإعادتها إليهم وذلك لجمع كل الوثائق التاريخية التى تناولت تاريخ مصر وحتى لا تطولها يد العبث وحتى تكون فى خدمة الباحثين.. وفى ضوء تلك الحملة قام عبد الخالق فريد بتسليم عدد ٨ كراسات من مذكرات والده المعنونة "مذكراتى بعد الهجرة" إلى دار الوثائق فى ١٦ نوفمبر سنة ١٩٦٣ ثم فى العام التالى سلم باقى المذكرات.

وهكذا يمكننا القول أن أوراق محمد فريد تنقسم إلى ثلاثة أقسام :-

أ - **القسم الأول** : خمس كراسات وهى تحت عنوان "تاريخ مصر" ابتداء من سنة ١٨٩١ حتى سنة ١٨٩٧ .

ب - **القسم الثانى** : إحدى عشر كراسة واختار له محمد فريد عنوان "مذكراتى بعد الهجرة".

ج - **القسم الثالث** : ويتكون من مجموعة من الخطابات المرسلة من بعض الأفراد إلى محمد فريد والعكس.

والخلاصة أنَّ من يطلع على أوراق محمد فريد ومذكراته وذكرياته يشعر أنه أمام مفكر ومؤرخ وزعيم فى آن واحد.. فقد آمن بالمبادئ التى كان يدافع عنها مصطفى كامل والتى تجسدت فى :-

١- الأمل هو دليل الحياة والطريق إلى الحرية ملئ بالأشواك ويستحق التضحيات.

(١) من الجدير بالذكر أن الكاتب الصحفى والمفكر التاريخى محمد صبيح استخدم كثيراً من أوراق ومذكرات محمد فريد فى كتابة كتابه "اليقظة فى تاريخ القومية العربية" وذلك فى عام ١٩٦٤ وكان ذلك بداية الاهتمام العام والخاص بما جاء فى هذه المذكرات.

٢- التعليم بلا تربية عديم الفائدة والإحساس بالمواطن هو المقدمة الطبيعة للانتماء والعطاء.

٣- أن الأمة التى لا تأكل مما تزرع ولا تلبس مما تصنع أمة محكوم عليها بالتبعية والفناء.

٤- أن من يتهاون فى حق من حقوق دينه وأمته ولو مرة واحدة يعيش أبد الدهر مزلزل العقيدة سقيم الوجدان.

كان محمد فريد يتعاطى التاريخ فى كل مقالاته وخطبه وكتاباته ويقول إن سطور التاريخ هى كنوز دفينة حيث أنها عمل مفصل قام بسرده المؤرخون فى كتب أو مذكرات، وأن الدراسات التاريخية لا تقود دائماً إلى تقديم الماضى فحسب، بل أيضاً لشرحه وتفسيره بأسلوب سهل ميسر إلى جماهير الشعب ونخبته، كي يخرج من ظلام عباءة الماضى إلى ضياء الحاضر وفضاء المستقبل.

وإذا كان للماضى علم التاريخ يدرسه ويبعثه ويعلل أحداثه، إلا أن قيمته الحقيقة ليست بأحداثه السياسية بل بوعى المواطنين وحرصهم على فهمه... فالتاريخ لا يجب أن يكون انتقائياً من وجهة نظر محمد فريد ذلك أن التعرف على الماضى وما به من مآثر فيها السلبيات والايجابيات إنما هو العنصر الرئيسى المكون لثقافة الشعوب... وقد تحول لدى الشعوب والمجتمعات المتحضرة من نطاق العلوم النظرية إلى العلوم التطبيقية لأنه علم يرتبط بوجود الدولة وعناصرها المتمثلة فى الأرض والشعب والسُلطة ويعبر عنهم جميعاً بأنهم هوية الوطن ووجوده.

لذلك عندما يعود الحاضر إلى الماضى، فإنه سيجد فيه تجربة خاضها الأجداد وفيها الكثير مما يمكن الاستفادة منه سواء فى ايجابيات هذا الماضى أو سلبياته، فالتاريخ يعد نوعاً من أنواع الجدل بين الحاضر والماضى وجدل بين ما حدث بالفعل وما سيحدث مستقبلاً.. ومن ثم يقول محمد فريد بضرورة السعى للبحث عن الحقيقة وتقديمها بإنصاف فى أي كتابة تاريخية.

إن أوراق وذكريات وكتابات ومقالات محمد فريد هى بمثابة الضوء الكاشف لكل ما حدث فى عهده وشهادة على عصره الذى عاش فيه وليس من السهل قراءتها منفصلة عن بعضها البعض بل لابد من الربط بين سطورها لأنها وحدة

مكملة لتطور التاريخ المصرى فى مرحلة هامة من الأحداث تبدأ من سنة ١٨٩١ وتنتهى فى سنة ١٩١٩ .

كان فريد يؤكد دائماً من خلال كتاباته وأوراقه أننا لسنا فاقدى الذاكرة والعقول حتى نساق كما يريد البعض بل نحن وطنيون أحرار نعرف أن المستقبل للمناضلين وأن العار للخونة والمارقين.. كما كان يقول أن الحق لن يتحول إلى باطل والباطل لم يصبح حقاً وعلى الحكام أن تفهم أن الشعوب لا تركع قط إلا إلى حين وأنها لا تهزم أبداً فالفرد يزول والشعوب تبقى.. وكان يذكر من حوله أن أحداً كائناً من كان لا يستطيع أن يمنعنا من حب هذا الوطن والدفاع عنه ولو خيرونا بين الصمت أم الموت سوف نختار النضال حتى النصر مهما كان الثمن الذى ندفعه فيه ولو بحياتنا وأرواحنا.

كان محمد فريد يؤكد على أن ينادى بأن من يتخلى عن ثوابت الأمة سوف تدوسه الأقدام وتذروه الرياح، وعلى أن الوطن هو ملك لأبنائه الشرفاء والذين يخرجون على ثوابته لا مكان لهم تحت سمائه.. وأن الانتماء ليس كلمة مجردة وإنما هو ارتباط بالوطن ودفاع عن أمنه ومصلحته ومصلحة الأمة.. وكان يقول : نحن نحتمى بتاريخ مصر وشعب مصر.. نحتمى بتضحيات المصريين على مدى التاريخ ومصر تحتمى بشهداء الوطن الذين سقطوا دفاعاً عن كل حبة رمل من أرضه وصيانة لحريته واستقلاليته.

وإذا كانت بعض آمالنا لم تتحقق.. سوف تتجدد مطالبنا مع تجدد الحياة وإرادة الشعب هى خير سلاح لتحقيق هذه الآمال وإذا قيل أن الحياة جهاد.. فقد حق علينا القول أن نقول أن الجهاد حياة فى قيمتها دون مدتها فمن جاهد شهراً فقد عاش خلال شهر جهاده دهراً ومن جاهد من أجل أمته فقد أضاف زمن أمته إلى عمره.

والأمم الحية لا تعيش إلا بحريتها وكرامتها وتأبى أن تحيا فى الذل مهما كان رغد عيشها وستظل الفكرة السامية فى حياة الشعوب هى فكرة الوطنية المقدسة فإذا مات رمز الفكرة وبقيت فى وجدان الأمة التى أوجدتها فالميت حى إذا ذكرته والحى ميت إذا نسيته..

الفصل الرابع
كفاح محمد فريد من أجل مصر فى الداخل

لم يبدأ كفاح مصر الحقيقى لمواجهة الاحتلال البريطانى إلا بعد ظهور مصطفى كامل ولكن القدر كان قاسياً على مصر لأنه توفى فى الرابعة والثلاثين والنصف والمدى الزمنى لكفاحه كان لا يزيد عن ستة عشرة عاماً ونصف .

وظل محمد فريد مرافقاً لمصطفى كامل منذ عام ١٨٩٣ حتى عام ١٩٠٧ ثم أصبح محمد فريد قائداً للحزب الوطنى رغم معارضة الخديوى عباس حلمى الثانى وكذلك أسرة مصطفى كامل وعلى رأسها على فهمى كامل الذى كان يؤمن بفكرة أن يرث الحزب بعد وفاة أخيه .. وكان صدام محمد فريد بالخديوى عباس وبعض قيادات الحزب الوطنى الذين حاولوا التصدى لعدم انتخابه رئيساً للحزب فى أعقاب وفاة مصطفى كامل بالرغم من أنه كان الوكيل الأول لهذا الحزب والذى أوصى مصطفى كامل بأن يكون خليفته .. ولكن على فهمى بناءً على تحريض من الخديوى عباس حلمى أراد أن يجعل منصب رئيس الحزب وراثى إلا أن محمد فريد تصدى لهما سوياً ونجح بالفوز برئاسة الحزب ولكنه أدرك منذ اللحظة الأول أن الطريق لتنفيذ طموحاته وتجميع الجماهير حوله لن يكون سهلاً أمامه .

وفيما يلى أهم القضايا التى جسدت عظمة كفاح محمد فريد من أجل الوطن خلال السنوات من ١٩٠٨ حتى ١٩١٢ وهى المعروفة باسم مرحلة الكفاح الداخلى.

والقضية الأولى هى الصراع بين محمد فريد والانجليز من ناحية وبين محمد فريد والخديوى عباس حلمى الثانى من ناحية أخرى حول قضيتى الجلاء والدستور ، ولكن إلى جانبهما هناك قضية كانت تختص بمصر ومستقبل قناة السويس ونقصد بها محاولة بريطانيا عن طريق عملائها فى مصر مد امتياز شركة القناة ٤٠ سنة أخرى تبدأ من انتهاء الامتياز الذى كان مقرراً له ٩٩ عاماً تبدأ من ١٨٦٩ حتى ١٩٦٨ حيث أرادت بريطانيا أن تمد الامتياز حتى عام ٢٠٠٨ نظير دفع مبلغ ٤ مليون جنيه لمصر .. وكادت عملية المد أن تمر فى هدوءٍ وكتمان

لولا ذلك الدور الذى لعبه محمد فريد فى التصدى لتلك المحاولة الاستعمارية البريطانية والتى كانت بمثابة ضربة قاضية للحكومة المصرية وللخديوى عباس وللسلطات البريطانية المحتلة .

قناة السويس كانت مأساة الشعب المصرى .. فقد كانت سبباً فى قيام بريطانيا بالعمل على احتلال مصر.. ورغم أن الهدف من حفرها أن تكون فى خدمة مصر ، إلا أنه فعلياً مصر هى التى أصبحت فى خدمتها .. والذى لا شك فيه أن مشروع "فرديناند ديلسيبس" الذى عرضه على سعيد باشا كان أشبه بالخديعة فكل الشواهد التاريخية تؤكد أن مصر هى التى أنفقت على المشروع ليس فقط من أموالها ولكن من دماء أبنائها ، فقد استمر حفر المشروع بأبسط الوسائل البدائية مدة عشر سنوات مات خلالها أكثر من ١٢٠ ألف عامل مصرى (مائة وعشرون ألفاً) لم يكلفوا الشركة كأجور لهم إلا الفتات ، ناهيك عن أولئك الذين لم تثبتهم المراجع التاريخية كضحايا لهذا الحفر والذين دفنوا تحت الرمال ونحن نقدرهم بنحو ثلاثين ألف عامل انتزعوا من بين فلاحى الوجهين البحرى والقبلى وأجبروا قسراً على العمل بالسخرة تحت لسعات الكرابيج .. وكان الاتفاق المبدئى لحفر قناة السويس قد تم بعد ولاية الوالى سعيد باشا ابن محمد على الذى تولى بعد وفاة ابن عمه عباس الأول فى سنة ١٨٥٤ وظل يحكم مصر حتى يناير سنة ١٨٦٣ ولما تولى إسماعيل باشا حكم مصر سنة ١٨٦٣ نجح فى أخذ امتياز من السلطان عبد العزيز - السلطان العثمانى - يسمح له بالاستدانة وذلك فى ٢٥ من رجب ١٢٨٩هـ (٢٨ سبتمبر ١٨٧٢م) بعد رشوة السلطان وإغداق الهدايا عليه هو ورجال البلاط العثمانى .

وقد استغل إسماعيل هذا الأمتياز فتورط فى استدانة مبالغ ضخمة من الخارج أنفقها على ملذاته وعلى حياة البذخ والترف التى أصبح يحياها وعلى مشاريع خاسرة غير مدروسة وعلى بناء قصور كثيرة حتى بلغت ديونه فى ظرف عشر سنين مائة مليون جنيه ذهبى .. وهو دين ضخم جداً إذا ما أخذنا فى الحسبان القوة الشرائية للجنيه الذهبى آنذاك ويكفى لتقدير ضخامته أنه كان يقارب كثيراً ديون الدولة العثمانية .

وأمام هذه الديون الباهظة اضطر الخديوى إسماعيل إلى طرح أسهم قناة

السويس التى كانت تمتلكها مصر للبيع وتبلغ ٤٤٪ تقريباً من مجموع أسهم القناة، ومع أن فرنسا رغبت فى شرائها إلا أن " دزرائيلى " رئيس وزراء بريطانيا سبق فرنسا ونجح فى شراء هذه الأسهم بثمن بخس .. وقامت قيامة باريس إذ أصبح واضحاً أن انجلترا بسطت جناحيها على مصر .

وقد بلغ إجمالى ما أنفقته مصر على مشروع قناة السويس حتى افتتاحها فى نوفمبر عام ١٨٦٩ حوالى ١٦,٨٠٠,٠٠٠ جنيه ..

المبلغ بالجنيه	البيان
٣,٤٢٦,٠٠٠	قيمة أسهم مصر فى القناة
٣,٣٦٠,٠٠٠	قيمة التعويضات التى حكم بها نابليون الثالث على الخديوى إسماعيل نظير تنفيذ الشركة لبعض بنود الاتفاق مع سعيد باشا
٤٠٠,٠٠٠	ثمن أراضى تفتيش الوادى بمقتضى اتفاق ٣٠ يناير ١٨٦٦
١,٢٠٠,٠٠٠	تعويض للشركة بمقتضى اتفاق ٢٣ أبريل ١٨٦٩
١,٢٠٠,٠٠٠	نفقات القناة ....
١,٤٠٠,٠٠٠	نفقات حفلات الافتتاح
٥,٨١٤,٠٠٠	فوائد وسمسرة ونفقات التحكيم
١٦,٨٠٠,٠٠٠	مجموع ما أنفقته مصر على المشروع

دفعت مصر هذه الملايين واحتملت ما احتملت فى سبيل القناة .. لكن المأساة بدأت تنسج خيوطها عندما أعلنت مصر إفلاسها فى عهد الخديوى إسماعيل سنة ١٨٧٥ .. وفى نفس العام بيعت أسهم مصر فى القناة حيث اشتراها الانجليز، وكان يوم البيع يوم سبت وبالرغم من أن البنوك الانجليزية كانت مغلقة إلا أن رئيس الوزراء البريطانى ديزرائيلى أمر بفتح البنوك لتحويل مبلغ ٥ ملايين جنيه ثمن الأسهم إلى مصر بعد خصم السمسرة وذلك خوفاً من أن تسبقه فرنسا لشراء هذه الأسهم ، وفى سنة ١٨٨٠ باعت مصر للشركة حقها فى الأرباح وكان ذلك يعنى أن مصر قد خسرت كل شئ .

وعندما بدأت محاولات فى الخفاء من جانب الانجليز وحكومة بطرس باشا غالى رئيس وزراء مصر فى سنة ١٩١٠ لمد أمتياز شركة قناة السويس لمدة ٤٠ سنة تبدأ من ١٩٦٨ حتى ٢٠٠٨ ، بدأ محمد فريد يكشف الخطة ويتصدى لها .

وكادت الصفقة أن تتم دون أن يعلم بها أحد .. ولكن محمد فريد استطاع أن يحصل على نسخة من مشروع الصفقة وأن ينشره فى الصحف وعلى رأسها صحيفة اللواء وكان ذلك بمثابة نداء للرأى العام المصرى لتحذيره مما يحدث من تآمر على مستقبله وعلى قناته حتى لا تمر عملية تجديد الامتياز كما سبق وأن مر اتفاق توقيع الحكم الثنائى بين مصر وبريطانيا والذى لم يعرض على أي من الكيانات التشريعية فى مصر بل وقعه بطرس غالى فى يناير وفى يوليو ١٨٩٩ بصفته وزيراً للخارجية نيابة عن الحكومة المصرية ولم يعلم به الشعب المصرى إلا بعد توقيعه .. مما ترتب عليه انفراد بريطانيا بحكم السودان بعيداً عن مصر .

نادى محمد فريد بضرورة عرض مشروع مد امتياز شركة قناة السويس على الجمعية العمومية المنتخبة من الشعب وكان محامى الحكومة هو سعد زغلول والذى حاول أن يترافع ليضمن أصوات نواب الجمعية ففشل فشلاً ذريعاً حيث كانت الأمور على النحو التالى :-

أولاً : ظل هذا المشروع فى طي الكتمان حوالى سنة وكان فى عزم الحكومة تنفيذه نظراً لنقص الاحتياطى المالى فى ميزانيتها (حوالى أربعة ملايين جنيهاً للانفاق على السودان) .

ثانياً : تمكن محمد فريد من الحصول على نسخة من المشروع فى أكتوبر ١٩٠٩ فبادر بنشرها فى جريدة اللواء موضحاً مدى الضرر الذى ستتعرض له مصر من ورائه .

ثالثاً : اهتم الرأى العام بهذا الموضوع ورأت الأحزاب المصرية لأول مرة ضرورة الاتفاق على طريق واحد لمواجهة هذا المشروع وطالبت الصحافة الوطنية بعرض الموضوع على الجمعية العمومية (كان الاستعمار البريطانى لمصر عام ١٣٠٠هـ/١٨٨٢م قد قام بحل البرلمان المصرى الذى تكون خلال أحداث الثورة العرابية وأنشأ مكانه مجلسين صوريين وهما مجلس شورى القوانين

القوانين والجمعية العمومية ولم يكن لأى منهما أي سلطات فعلية بل كانت السُلطة كاملة فى قبضة المعتمد البريطانى فى مصر وسيطرت حكومة الاحتلال على الحكومات المصرية من خلال تواجد مستشارين انجليز لدى كل وزارة حيث لا يتم إبرام أي أمر إلا بالموافقة المسبقة منهما .

رابعاً : نظراً لخطورة المسألة فقد اجتمعت اللجنة الإدارية بالحزب الوطنى برئاسة محمد فريد فى ٢٩ أكتوبر سنة ١٩٠٩ وقررت دعوة الحكومة إلى أخذ رأى الأمة قبل تنفيذ مشروع مد امتياز شركة قناة السويس كما أرسلت الكثير من الشخصيات البرقيات الجماعية إلى الخديوى عباس تعبر عن رفض أصحابها تجديد امتياز القناة وطالبوا بعرض الموضوع على الجمعية العمومية .

خامساً : وفى ٩ فبراير سنة ١٩١٠ افتتحت جلسات الجمعية العمومية برئاسة الأمير حسين كامل (ابن الخديوى السابق إسماعيل).. وقد حاولت الحكومة استعمال الشدة مع الأعضاء لكى يوافقوا على المشروع وكان الأمير حسين كامل يؤيد المشروع ولكن الأعضاء أصروا على الرفض .

سادساً : فى ١٠ فبراير ١٩١٠ شكلت الجمعية العمومية لجنة مكونة من ١٥ عضواً لدراسة المشروع وكتابة تقرير عنه وقد انتهت اللجنة إلى عدم قبول المشروع لأنه ليس فى صالح البلاد .

ونظراً للمعارضة الشديدة للمشروع فى الجمعية العمومية لم يجد الأمير حسين كامل بديلاً عن الاستقالة من رئاسة جلسات الجمعية خصوصاً بعد أن فشل فى تحويل دفة المناقشات لصالح الحكومة .

وهكذا نجحت الجمعية العمومية فى فرض رأيها على الحكومة وكان الفضل الأول لذلك يعود إلى محمد فريد ودوره فى إثارة الرأى العام ونشر المؤامرة على صفحات الصحف .. ومن الجدير بالذكر فى هذا الموضوع أنه قد أثير أمام مجلس العموم البريطانى ورفض وزير الخارجية البريطانى آنئذ الإدلاء بأي بيان (كان اسمه السير إدوارد غراى) حيث أعلن أن الموضوع سيعرض على الجمعية الوطنية فى مصر وأنه ليس من المصلحة الإدلاء بأية بيانات قبل ذلك خاصة وأن

المستشار المالى قد أكد له أنه ليس ثمة خطر من عرض الموضوع على الجمعية العمومية لأن صوتها استشارى .. وأن الحكومة المصرية قد أوكلت إلى سعد زغلول الدفاع عن المشروع وإقناع الجمعية به وكان سعد زغلول فى ذلك الوقت مشهوداً له بالقدرة الإقناعية والحُجة البيانية ... وفى جلسة الجمعية العمومية يوم ٤ أبريل سنة ١٩١٠ . قال سعد زغلول لأعضاء الجمعية :-

"احتججتم بأن المشروع الذى قبلته الحكومة لم تقبله الشركة بعد .. وإنى أقول الآن أنه ورد على الحكومة جواب من مجلس إدارة الشركة بتاريخ ٢ فبراير يفيد قبوله بهذه التعديلات وعلى ذلك فقد زال المانع" .

ولكن فى الجمعية فى جلسة ٧ أبريل ، تم التصويت على المشروع بالنداء بالاسم فرفضته الجمعية بالاجماع ما عدا الأمير حسين كامل الذى امتنع عن التصويت .

ولعل مما يذكره التاريخ لمحمد فريد إلى جانب هذه الوقفة مطالبة الحكومة المصرية بإلغاء امتياز قناة السويس والمطالبة بتأميمها ، فكان بذلك سابقاً لعصره حيث قال :-

" إن مصر لو كانت حرة، وكانت أعمالها بيد نوابها لفضلت استرداد الامتياز من الآن، ولكن هذا الأمر يستحيل صدوره من مثل حكومتنا التى لا تراعى فى إدارة أمورها إلا ما يوحى به إليها المستشارون الانجليز " .

أما ميدان الكفاح الثانى الذى خاضه محمد فريد فهو يتعلق بالقضية التى كرس نفسه من أجلها ونقصد بها قضية الجلاء والتصدى لألاعيب الاحتلال البريطانى ووعوده المزيفة ، وكان سلاحه فى مواجهة هذا الاحتلال النشر فى كثير من الصحف سواء المصرية أو الاجنبية وكل مقالاته تركزت على أنه لا حق لبريطانيا ولا شرعية لها فى البقاء فى مصر .

كان تصدى محمد فريد للاحتلال البريطانى متلازماً مع كفاح مصطفى كامل ولكن بدءاً من عام ١٩٠٨ بدأ يقود حركة الصراع ضد الاحتلال وحده وحدثت عدة تصادمات بينه وبين المعتمد البريطانى .. وكان سلاح فريد إثارة المظاهرات وكتابة الكثير من المقالات فى الصحف ، هذا بالإضافة إلى حضور المؤتمرات والندوات التى يفضح فيها أساليب بريطانيا فى إدارة شئون مصر .

لقد ركز محمد فريد فى كفاحه بعد وفاة مصطفى كامل على أربعة دوائر هى:-

الدائرة الأولى تعقب محمد فريد للاحتلال والعلاقة بينه وبين مجموعة من الشخصيات المصرية وكذلك بينه وبين الخديوى (أي بين الاحتلال والخديوى) ..

فقد احتج محمد فريد على تصريحات وزير الحربية البريطانية - اللورد "هالدين" - الذى رفض أي إنقاص للقوات البريطانية فى مصر بحجة أن ذلك سيؤدى إلى اختلافات عرقية أو دينية مما يستدعى بقاء جيش الاحتلال على حاله .. وأرسل إليه على الفور فى سنة ١٩٠٨ تلغرافاً يحتج على تصريحه مؤكداً أن مصر لا تعرف التفرقة بسبب العِرق أوالدين ، وأن تاريخها مشرف ومواطنيها نسيج واحد وأن تلك الحُجة ما هى إلا وسيلة لمحاولة تثبيت أقدام بريطانيا فى مصر .

الدائرة الثانية لكفاح محمد فريد كانت هى المطالبة بالدستور ... فقد نادى بأن كل مصرى صادق لا يقبل أن يكون حكم مصر بيد سمو الخديوى بمفرده أو بيد المعتمد البريطانى بشكل منفرد أو بيد الاثنين معاً .

ومنذ ذلك الوقت بدأ ظهور دور الطلبة فى الحياة السياسية بمصر ، وقدم الحزب الوطنى للخديوى عرائض تطالب بمجلس نيابى وتم تأسيس جميعات للطلاب المصريين فى الخارج للمطالبة بالاستقلال والدستور فى آن واحد.

ودلل محمد فريد على مطالبته بالدستور بأن مصر عرفت الحكم النيابى قبل أن تعرفه معظم دول الشرق حيث بدأت مصر تجربتها النيابية -ولو أنها كانت متواضعة وموجهة -سنة ١٨٦٦ فى عهد الخديوى إسماعيل وعرف أول مجلس نيابى فيها باسم مجلس شورى النواب ، وبذلك كانت التجربة المصرية سابقة على تجربة الدولة العثمانية التى بدأت سنة ١٨٦٧ بما عرف باسم مجلس المبعوثان .

وكان محمد فريد يؤكد أن الحكم الفردى معناه أن يكون مصير الشعب بيد حاكم ديكتاتور وأن نهاية هذا الطريق دمار هذا الشعب ، وأن الشورى نص عليها الدين الاسلامى ونادى بها كل المصلحين ، وأن من مصلحة أي حاكم أن يشترك معه نخبة الوطن وكل المثقفين فيه ، ونادى بأن تكون الصحافة هى مرآة للحاكم

تساعد على تفهمه مشاكل الشعب وما يتطلع إليه ، ولذا فإن الدستور وحرية الصحافة هما عماد الممارسة الديمقراطية .

وطالب محمد فريد بأن يحتوى الدستور على مفهوم المواطنة إلى جانب مساواة كل المواطنين أمام القانون وأن يعطى المجلس النيابى سلطة محاسبة الحكومة ، ونادى بكفالة الحريات لكل المواطنين وعدم مصادرة الصحف إلا بعرض الأمر على القضاء . وكانت الجمعية العمومية للحزب الوطنى فى شهر مارس ١٩٠٧ قد طالبت الحكومة المصرية بإنشاء مجلس نيابى فردت الحكومة بعد سنة أي فى ٨ فبراير سنة ١٩٠٨ رداً مهيناً جاء فيه : " أن الوقت لم يحن بعد لتشكيل مجلس نواب يرجى منه النفع العام الذى ينتظر من المجالس النيابية " .. ولم يسكت محمد فريد على هذا الرد المهين والذى كان مطابقاً لحديث أدلى به "الدون غورست" المعتمد البريطانى بعد اللورد كرومر إلى صحيفة المقطم الناطقة بلسان الانجليز والذى رمى فيه المصريين بالتأخر وعدم النضوج .. فحرص فريد على قيام المظاهرات للمطالبة بالدستور وساهم أفراد الشعب كلهم وخاصة الطلبة فى هذه المظاهرات وأرسل طلبة الحقوق إلى الخديوى فى شهر نوفمبر سنة ١٩٠٨ برقية طلبوا فيها منه اعلان الدستور ومنح الأمة حق تشكيل مجلساً نيابياً وكان الطلبة ينادون فى مظاهراتهم " الدستور يا أفندينا " .

وبوفاة "الدون غورست" المعتمد البريطانى فى مصر وتعيين " الفيكونت كتشنر " ، بدأ عهد جديد للعلاقة بين بريطانيا ومصر أو بين النضال القومى المصرى والاستعمار البريطانى فى وادى النيل .

وقد كان " كتشنر " يوجه الاحتلال للقضاء على تلك الحركة الوطنية التى كان يقودها محمد فريد ، فبدأ يزج برموز هذه الحركة فى السجن ويقوم بالكثير من الاعتقالات بين صفوف أنصار الحزب الوطنى .

وكان محمد فريد يقول " إذا كانت غاية الحكومات هى توفير السعادة والأمانة للمواطنين ، فإننا نؤكد أن المجتمع الحُر هو ذلك الذى يزاول فيه الشعب بنفسه سُلطة السيادة والذى تحترم فيه الدولة حقوق وحريات المواطنين .

والحرية هى ملك الشعب وملك الأمة وعنوان سيادة الجماهير .. وبديهى أن

الحريات لا تعطى قطرة قطرة بل يجب أن تعطى بأكملها ، وأن القول بأن شيء خير من لا شيء .. هذا القول فى حياة الأمم بمثابة المخدر " ، وكان يعيب على أولئك الساسة الذين كانوا يقولون " نرضى بما يجود علينا به الانجليز ثم نستكمل ما نقص فيما بعد " .

كما كان يردد لمن حوله أن مصر خامس دولة فى العالم تمارس فيها الحرية والديمقراطية وأن برلمان سنة ١٨٨١ كان يمثل مجلساً نيابياً متكاملاً .. وكان يقول أن الدساتير لا تُمنح للشعوب ولا تُعطى ولا تُنشأ فى يوم وليلة وإنما الدساتير تُنشأ بمعرفة مُمثلى الشعب بإرادة الشعب، فإذا لم تكن نشأة الدساتير بإرادة الشعب ومن نبض الشعب وبإحساس الشعب فليست هى بدساتير وإنما هى نُظم توضع لكي يحكم بها الحاكم كيفما شاء ..

أما الميدان الثالث للكفاح الوطنى لمحمد فريد فى الداخل ، قبل سفره فهو الاهتمام بالتعليم ... فقد كان شريكاً أساسياً فى الدعوة إلى إقامة جامعة مصرية من منطلق أن الجامعة هى بوتقة التطور والتحديث ومنارة العلم والمعرفة وطريق الأوطان للحرية والاستقلال .

وقد طالب محمد فريد بتعميم التعليم الابتدائى بالمجان وطالب بأن يكون بكل مديرية مدرسة ثانوية ، كما أنه شارك فى إنشاء الجمعية الخيرية الإسلامية[1].

حضر محمد فريد أول اجتماع للجمعية التأسيسية التى تدعو إلى إنشاء الجامعة الأهلية يوم الجمعة الموافق أول أكتوبر سنة ١٩٠٦ . بدار سعد زغلول الذى كان يومئذ يعمل مستشاراً بمحكمة الاستئناف ، واكتتب فريد يومئذ بمائتى جنيه مصري وهو أقصى مبلغ تبرع به أحد الحاضرين فى ذلك الاجتماع وبعده مصطفى كامل الذى تبرع بمائة جنيه .. ولم يتفوق عليه فى التبرع سوى حسن بك جمجوم الذى تبرع بألف جنيه . وقد انتخب المكتتبون محمد فريد عضواً بلجنة إنشاء الجامعة ولم يلبث أن انتخب سكرتيراً لها بدلاً من قاسم أمين الذى انتخب نائب رئيس لها حين انسحب سعد زغلول من المشروع على أثر تعيينه وزيراً للمعارف سنة ١٩٠٦ .

(١) كان محمد فريد قد ساهم مع الشيخ محمد عبده فى تأسيس هذه الجمعية سنة ١٨٩١ إلى جانب مجموعة من المثقفين وقد أسهمت هذه الجمعية فى نشر التعليم الابتدائى فى مصر على نطاق واسع وظل محمد فريد عضواً فى مجلس إدارة هذه الجمعية لمدة ١٥ عاماً.

ويعزو التاريخ إلى محمد فريد إنشاء ما عرف فى تاريخ مصر باسم مدارس الشعب ، وكانت أول مدرسة من هذا النوع فى بولاق ثم الخليفة ثم شبرا ثم العباسية ، وكانت كل منها تضم نحو مائة وعشرين تلميذاً من مختلف الحرف ، ولم تلبث هذه المدارس أن انتشرت هذه المدارس فى عواصم القطر المصرى .. وقد ساهم نادى المدارس العُليا فى هذه الحركة إذ ألف لجنة لنشر مدارس الشعب وتولى أعضاؤه التدريس فيها .. وقد قال محمد فريد فى خطبة له بتاريخ ٧ يناير سنة ١٩١٠ :-

" يجب أن يكون قصدنا جميعاً الوصول إلى جعل التعليم الابتدائى إلزامياً ومجانياً لكل مصرى ومصرية، أقول مجانياً لأنه لا يمكن التوفيق بين الإلزام ودفع أجر على التعليم ولأن جعله مجاناً للفقراء وبأجر للأغنياء فيه جرح لعواطف الفقراء من التلاميذ فالديمقراطية الحقة والمساوة الحقيقية تقضيان بأن يكون التعليم الابتدائى مجاناً لجميع طبقات الأمة فقيرها وغنيها بلا تمييز " .

أما ميدان الكفاح الرابع الذى ناضل فيه محمد فريد فهو ميدان تنظيم النقابات العمالية .. فقد اتجه الحزب فى رئاسة محمد فريد نحو الطبقة العاملة كرصيد شعبى للحركة الوطنية وتبنى محمد فريد الدفاع عن القضايا العمالية ، واتخذ الحزب لذلك خطوات تنظيمية هامة سارت فى اتجاهين متوازيين ، الاتجاه الأول تثقيف العمال وتعليمهم .. والاتجاه الثانى هو إنشاء النقابات .. وكانت نقابة الصناعات اليدوية هى الأولى ، وكانت تُعد بحق أكبر تنظيم عمالى فى مصر طوال الفترة التى سبقت الحرب العالمية الأولى ، حيث جسدت الملامح الأساسية التى اتسمت بها حركة الطبقة العاملة من حيث كونها نقابة وطنية فى عضويتها وقيادتها ومن حيث ارتباطها بالعمل الوطنى كما كان يرسمه الحزب الوطنى ويقوده ..كما كانت هذه النقابة مركزاً للالتقاء الواقعى بين الطبقة العاملة والمثقفين الوطنيين ليس فقط فى نشاطها اليومى بل وفى نظام عضويتها[1].

وطالب محمد فريد فى كثير من مقالاته بتشريعات عمالية جديدة تهتم

(١) كان أول رئيس لهذه النقابة هو المرحوم على بك ثروت من خاصة أصدقاء محمد فريد وأنصاره .

بالأجر وساعات العمل وبتأمين صحى للعمال ومساكن لائقة بهم حيث قام بنشر سلسلة من المقالات بدءاً من عام ١٩٠٨ ينتقد فيها سياسة الحكومة إزاء العمال ويطالبها باستصدار القوانين الكفيلة بحمايتهم وتعويضهم .. وتعتبر هذه المقالات بحق بداية الانطلاق الواسع للحركة العمالية والنقابية فى مصر .

اما عن جهوده الاقتصادية والاجتماعية ، فكانت تتجلى فى معظم خطبه حيث كان يهتم بالعناية بالصحة العامة ويدعو إلى تخفيف الضرائب الجمركية على مستلزمات الصناعة فى مصر .

كان محمد فريد حقاً أمة فى رجل ورجل فى أمة وكان يتصف بالصدق والاخلاص والصراحة والوفاء والصبر والثبات والشجاعة وقوة الإرادة والجود والكرم والتواضع والطيبة وإنكار الذات ودماثة الأخلاق فكان فى شخصه مجموعة من الفضائل العظيمة والأخلاق القويمة .

كان يحرص كل الحرص فى جميع أدوار جهاده الوطنى على توجيه المسألة المصرية وجهتها الصحيحة .

وقد تلخص مبدأ محمد فريد فى ثلاث كلمات الاستقلال والدستور والعدالة الاجتماعية .. وهو المبدأ الذى ثبت عليه ولم يقبل فيه هوادة ولا تساهلاً .. ومن كلماته المأثورة فى هذا الصدد قوله :-

" لا ينتظر أحد منا أن نحيد عن مبدئنا ما دام بيننا عِرق ينبض ، أو تجرى فى أجسامنا نقطة دم " .

وقد حارب من أجل هذا المبدأ كل سُلطة وكل فرد وكل هيئة لا تدين به ولا تعمل عليه ولقى فى سبيل ذلك ما لقى ، ولما رأى أن الخديوى عباس حلمى الثانى قد جنح لسياسة الوفاق مع الاحتلال قرر خصامه والابتعاد عنه تمسكاً بمبدئه ، وسار فى طريقه مستقلا عن كل سلطان بعيداً عن أي إغراء .. ولما حاول بعض أنصاره الإيماء له بأنه إن لم يحسن علاقته بالخديوى سينفضون من حوله ، كان جوابه أنه لا ينثنى عن مقاومة الاحتلال وكل من يلوذ به أو يتعاون معه حتى ولو كان ولي الأمر ، وانفض من حوله بعض أنصاره مجاملة للخديوى ولكن ذلك لم يضعف عزيمته بل ظل ثابتاً فى جهاده ضد السلطتين (سُلطة الاحتلال وسلطة الخديوى) .

كان محمد فريد حزيناً لانصراف الأحزاب عن القضية الرئيسية وهى الجلاء إلى مطالبتهم بالإصلاحات الداخلية المتواضعة ، وكان يرى فى ذلك خروجاً عن أساس التضحية الوطنية ، وحين سأله "المستر جون كيتل" عضو مجلس العموم البريطانى عما يطلبه الحزب الوطنى من انجلترا أجابه محمد فريد على الفور:-

" نحن لا نطلب شيئاً سوى الجلاء .. فالجلاء هو الدواء الوحيد للاحتلال " .

وإذا كان صراع محمد فريد فى الداخل يتضمن مرحلتين زمنيتين ، الأولى خلال حياة مصطفى كامل والثانية بعد وفاة مصطفى كامل وحتى هجرته، فيمكننا أن نقول أن محمد فريد لازم مصطفى كامل ملازمة الظل .. وكثيراً ما نصح فريد بعض الخائفين عليه من الانجليز بألا يكثر من اجتماعه بمصطفى كامل، إلا أنه كان يردد دائماً :-

" إن الوطنى الذى يحب بلاده لا يتعرف إلا إلى من كان على شاكلته .. وقد رأيت صديقى وأخى مصطفى قلبه كقلبى ونزعته كنزعتى وفصاحة خلابة ووطنية صادقة . فوالله الذى وهبنا نعمة الشعور واليقين لا أبتعد عنه إلا بالموت " .

وقبل هجرته كان مجموع ما ألقاه من خطابات فى مصر وأوروبا قد بلغ ٣٥ خطاباً ، كما أنه حادث السياسيين وأرباب الأقلام فى شؤون مصر والإسلام أكثر من مائة مرة وزار نحو سبع دول عربية منها مراكش وتونس والجزائر وطرابلس ، كما سافر إلى مالطة وإيطاليا .. وكان صريحاً فى كتابته صادقاً فى انتقاده ، حتى أن الحكومة الفرنسية عنيت بما كتبه انتقاداً للإدارة الفرنسية فى تونس وانحطاط التعليم بين الوطنيين وحرمانهم من وظائف بلادهم .. وحدث أن انتهز محمد فريد فرصة المؤتمر الذى عقده المستشرقون الفرنسيون فى مدينة الجزائر فى عام ١٩٠٥ وقيد اسمه عضواً فيه وكتب عدة رسائل نشرها فى جريدة اللواء ، وكان من قبل حضور هذا المؤتمر بعامين قد قام بزيارة إيطاليا الشمالية وبعض البلاد الواقعة فى بحر الأدرياتيك ثم عرج منها (١٩٠٣) إلى سويسرا وبلجيكا وهولندا والدانمرك .. وكتب فى هذه السياحة المقالات الشيقة التى كان لها تأثير كبير فى نفوس القراء ..

وفى عام ١٩٠٦ رافق الزعيم مصطفى كامل إلى أوروبا فى أعقاب حادثة دنشواى لفضح الاحتلال البريطانى وأساليبه فى مصر . وبدءاً من عام ١٩٠٧

وعندما بدأت صحة مصطفى كامل تضعف ، كان محمد فريد يعمل أكثر من ١٨ ساعة يومياً، ولما شعر مصطفى كامل بدنو الأجل جمع لجان الحزب وأصدقاءه وأوصاهم بأن ينتخبوا فريداً بعده رئيساً للحزب. وما أن فاضت روح مصطفى كامل فى ١٠ فبراير سنة ١٩٠٨ حتى أخذ محمد فريد يدير الحزب بمهارة ونشاط غريبين ومضى ينعى مصطفى كامل فى كل قرية من قرى القطر وطالب بإقامة تمثال له لتخليد أثره .

وفى سنة ١٩٠٩ عقد مؤتمراً فى جنيف احتجاجاً على الاحتلال ، ونجح من خلاله فى فضح أساليب الحكم البريطانى فى مصر . وفى العام التالى حضر مؤتمراً آخر فى بروكسل بحضور أكثر من ٤٠٠ مندوب من كل دول أوروبا للتصدى للاستعمار، وقد نجح هذا المؤتمر نجاحاً كبيراً وجمعت أعماله فى مجلد بلغت صفحاته نحو خمسمائة صفحة كانت كلها إدانة للاستعمار فى كل مكان[1].

وقد أنشأ مجلة بلندن فى سنة ١٩١٠ اسمها "إيجيبت" كان ينفق عليها من جيبه – كانت تدافع عن مصر وتدين الاحتلال البريطانى لها . وقام بإهداء مكتبته إلى نادى المدارس العُليا وكانت تحوى نحو أربعة آلاف مجلد دفع ثمنها من حر ماله .. كما كانت له يد بارة على الكثير من الطلبة الفقراء .. وقد أسهم فى تأسيس مدرسة ثانوية أزهرية فى القاهرة بتبرعه بمبلغ كبير من المال .

وخلال تواجده فى مصر فى المرحلة الأولى من كفاحه حرص على توثيق الصلات بين مصر، والأقطار العربية متحملاً مشاق السفر فى سبيل شرح قضية بلاده ومن أجل دفع تلك الأقطار – وكلها كانت مستعمرة –إلى الجهاد لطرد المستعمر والتمتع بالحرية والاستقلال .. وفى مؤتمر الحزب الوطنى سنة ١٩١١ انتخبته الجمعية العمومية للحزب لرئاسته للمرة الثانية .

لقد كانت رحلة الكفاح الأولى فى مصر ... مليئة بالكثير من البذل والعطاء الذى لم ينقطع فى المهجر والذى بدأت رحلته فى مارس سنة ١٩١٢

(١)كان من المفترض أن يعقد هذا المؤتمر فى فرنسا ولكن تحت الضغط البريطانى لم يعقد فيها فسعى فريد جاهداً لدى بلجيكا ونجح فى عقده ببروكسل وقد ترأس فريد هذا المؤتمر وذلك لمرض مستر جون كليف الانجليزى الذى كان من المفترض أن يرأس المؤتمر فألقى فريد خطاب الافتتاح والذى هاجم فيه بشدة الاحتلال البريطانى لمصر .

الفصل الخامس
كفاح محمد فريد فى المنفى

لماذا هاجر محمد فريد إلى خارج مصر :-

هذا سؤال ما زال يثير خيال المؤرخين ... والبعض يتهم محمد فريد بأن هجرته كانت هروباً من ميدان الكفاح فوق أرض مصر وأن تلك الهجرة تسببت فى تصدع الحزب الوطنى الذى أصبح بلا قيادة ، وأن هجرته تركت الجماهير بلا قيادة وأصبح الاستعمار هو المسيطر على كل صغيرة وكبيرة فى مصر .

وقد سبق الهجرة عدة أحداث عانى منها محمد فريد وأجبرته على الرحيل ليقود المقاومة من الخارج بعد أن ضيق اليأس والإحباط من إمكانية إفساح المجال أمامه .. فكبار رجال المجتمع المصرى من مُلاك واقطاعيين وأغنياء كانوا قد نفضوا أيديهم عن قضية الجلاء .. والوطنيين من أنصار مقاومة الاحتلال قد امتلأت بهم السجون .. والكلمات الحُرة لم يُعد لها مكان حيث بعث قانون المطبوعات من جديد وأصبح من غير المستغرب أن تصادر صحيفة ويسجن كاتب .. ويمكننا أن نعدد ملامح الصدام فى :-

١- محاولة الاحتلال البريطانى إشاعة أن محمد فريد له ضلع فى جريمة اغتيال ناصف الوردانى -أحد أعضاء الحزب الوطنى - ولكن لم ينجح الاحتلال البريطانى أو السلطات المصرية فى إثبات ذلك .

٢- تضايق الاحتلال البريطانى والسلطات المصرية من رسالة محمد فريد إلى الرئيس الأمريكى روزفلت أثناء زيارته لمصر فى ٢٦ مارس سنة ١٩١٠ وقيامه بإلقاء محاضرة فى الجامعة الأهلية .. حيث تكلم روزفلت فى محاضرته عن أهمية الجامعة وأنها الطريق القويم للتربية الصحيحة، وأشار روزفلت إلى فضل بطرس باشا غالى على مصر وأن جريمة اغتياله مكروهة فى نفوس الجميع وأنها وبال على الأمانى الوطنية، وتطرق إلى الحديث عن الأمم التى تمنح الدساتير وهى لم تزل فى دور التكوين

فقال:-

" إن مثل هذه الأمم تكون خطراً على نفسها لأنها لم تتم فيها الصفات التى تمكنها من الانتفاع بالدستور وأن الأمر الجوهرى ليس هو الإسراع للحصول على سلطة ليس أسهل من سوء استعمالها وإنما هو ترقية الصفات التى يسمو بها الفرد والأمة ترقية دائمة وإن تكن بطيئة ، وأن هذه الصفات هى التى تجعلها الأمة القادرة على حكم نفسها بنفسها " . ثم أشار إلى الإدارة الإنجليزية فى السودان وأثنى على اللورد كرومر وقت أن كان معتمداً فى مصر.

وكان هذا الخطاب مثار عاصفة من النقد فى جريدة المؤيد وفى صحف الحزب الوطنى .. وأرسل محمد فريد برقية إلى الرئيس الأمريكى يؤكد فيها أن مصر دولة متحضرة أسهمت فى بناء الحضارة البشرية ، وأنها عرفت الفكرة الديمقراطية والدستور والنظم التشريعية فى كثير من مراحل تاريخها ، وأن سبب تأخر مصر هو وجود قوات الاحتلال البريطانى فيها وسياسة بريطانيا التى تهدف إلى كبت الحركة الوطنية المصرية ، وأن على أمريكا بلد الديمقراطية وحارسة العالم الحُر أن تسعى إلى تأمين الحركة الوطنية حيث ذاقت الولايات المتحدة الاستعمار البريطانى وناضلت حتى تخلصت منه وحصلت على الاستقلال بعد التصدى لأساليبه من خلال ثورتها عليه فى سنة ١٧٧٦م لأن الأحرار يجب ألا يتمتعوا بالحرية وحدهم وإنما أيضاً يساعدوا البلدان الأخرى فى الحصول عليها .. فالاحتلال هو سلب لحرية الشعوب ودمار لمستقبلهم ومصر لا تستحق ذلك من أمريكا .

وقد أثمرت تلك البرقية أثرها فى الرأى العام الأوروبى ولكن لم يصل تأثيرها إلى الولايات المتحدة قط .

وكان أول صدام حقيقى بين الاستعمار البريطانى وبين محمد فريد هو نجاحه فى تحقيق هدفه المتمثل فى رفض الرأى العام المصرى والجمعية العمومية لمشروع مد امتياز شركة قناة السويس ، الأمر الذى أكد لبريطانيا أنه العدو الأول لها فى مصر وأن صنائع الاحتلال لم تحرز شيئاً أمام صلابته .. حيث كانت مقالاته تثير الرأى العام بشكل لا مثيل له . ومن أمثلة ذلك ما كتبه من أن هناك مجموعة من

المصريين تسعى لتمليك مرافق البلاد إلى الشركات الأجنبية وبالذات الانجليزية ، وكان ينتقد الرواتب الكبيرة التى يتقاضاها كبار الموظفين الانجليز مؤكداً أن الاحتلال المسئول عن إدارة الشؤون المالية فى مصر هو السبب فى عجز ميزانيتها.

وهنا تجدر الإشارة إلى أن زيادة غضب الاحتلال على محمد فريد بسبب موقفه فى قضية مد امتياز شركة قناة السويس كانت ترجع إلى ارتفاع أسعار أسهم الشركة ارتفاعاً كبيراً فى أعقاب سريان شائعة مد الامتياز وتعاظم احتمالات موافقة الحكومة المصرية على المد .. ففى سنة ١٩٠٩ كان ثمن السهم يتراوح بين ٤٧٥٠، ٤٨٦٦ فرنكاً ، إلا أنه سرعان ما ارتفع فى أعقاب إذاعة نبأ مشروع تمديد أجل الامتياز إلى ٥٩٩٤ فرنكاً ، ولكن بعد فشل المد انخفض السهم إلى ٢٥٠٠ فرنكاً مما أصاب بريطانيا – بصفتها الشريك الأكبر فى أسهم القناة – بالذعر وزاد بالتالى من رغبة الاحتلال فى التخلص من محمد فريد بأية وسيلة .

وزاد موقف محمد فريد سوءاً فى ظل استلام الخديوى عباس حلمى الثانى بعد تعيين "الدون غورست" مندوباً سامياً لبريطانيا فى مصر حيث اشتعل الخلاف بين فريد وبين الخديوى وأصبحت رغبة الخديوى أيضاً هى التخلص من محمد فريد ، هذا بالإضافة إلى قيام فريد فى أواخر أيامه فى مصر بمناهضة تركيا فى أعقاب تولى جماعة الاتحاد والترقى الحكم سنة ١٩٠٨ واتباعها سياسة تقضى بصبغ كل شئ بالنزعة التركية .. وعندئذ اتخذ فريد شعار " مصر للمصريين " ومن ثم فقد غضبت تركيا التى رأت أيضاً ضرورة التخلص منه لأنه عقبة أمامها .

وقد حاولت بريطانيا شراء محمد فريد وتحويله عن سياسته المتشددة ، ففى سنة ١٩١٠ عرضت عليه حكومة محمد باشا سعيد أن يتولى أحد المناصب الوزارية ، ولكنه رفض ورد بقوله :-

"كيف تطلب منى الاشتراك فى حكم البلاد وهى فى ظل الاحتلال الذى أحاربه ... كيف يتفق النقيضان ".

وعندما علمت انجلترا أنه يعانى من أزمة مالية أرسلت له وهو فى بروكسل وسيطاً يطلب منه الكف عن مناوءة الانجليز مقابل تعويضه واستقراره فى مصر ولكنه رفض قائلاً :

" أن ضياع ثروتى لا يؤثر على مبادئى وأرفض أي مركز فى الحكومة مادام الانجليز فى مصر " .

وذلك الرد جاء رغم معاناة محمد فريد وظروفه السيئة فى المنفى لدرجة أنه كان يسكن فى حُجرة واحدة أثناء وجوده فى برلين مع أحد رجال الحزب الوطنى المنفيين من مصر وهو الدكتور نصر فريد .

ولكن صمود محمد فريد أمام الاحتلال وتمسكه برأيه جعل المحتل يبدأ فى الهجوم عليه بمصادرة الكثير من مقالاته ، وبدأت الحكومة المصرية من جانب آخر تحاول ان تورطه فى بعض القضايا السياسية وبالذات قضايا الاغتيالات ، وكان الخديوى عباس حلمى الثانى يتهمه بأنه وراء رسائل التهديد التى تصل إليه من جمعية الانتقام .

واتهم الاحتلال جريدة اللواء بتشجيع حركات العنف حيث قامت الجريدة بنشر فصول طويلة من قصة دنجراه المندى قاتل اللورد كيروز فى انجلترا واعتبرت عمله عملاً وطنياً خالداً وحثت الشباب على التشبه به فى وطنيته .. وانتهز الاستعمار هذه الفرصة لمصادرة الجريدة .

وعندما ازدادت حركة المطالبة بالدستور ، والتى تزعمها محمد فريد وجند لها أنصار الحزب الوطنى لجمع توقيعات فى صورة عرائض تطالب بالدستور ترفع إلى الخديوى ، استنجد الخديوى بالاحتلال الذى أبدى استياءه من تصرفات فريد .. وقد سأل أحد أعضاء مجلس العموم البريطانى "السير إدوارد غراى" وزير خارجية بريطانيا عما إذا كان للخديوى أن يمنح مصر دستوراً ومجلساً نيابياً ، فأجابه الوزير بأنه لا يمكن ذلك إلا بعد استشارة الحكومة البريطانية مما أدى بمحمد فريد إلى إرسال احتجاجاً على هذا الجواب إلى السير إدوارد غراى.

ويمكن القول بأنه من الأسباب التى أجبرت محمد فريد على الخروج من مصر ومواصلة كفاحه فى الخارج الانقسام الذى كان داخل الحزب الوطنى والذى

أدى إلى وجود شرخ بين فريد وعلى فهمى كامل شقيق مصطفى كامل والذى لم يكن مستريحاً لسياسة محمد فريد المتشددة نحو الخديوى خاصة وأنه لم ينس طموحه فى أن يصبح رئيساً للحزب بعد وفاة أخيه .

ورغم أن محمد فريد طور طريقة الحزب الوطنى فى الكفاح بابتداع أسلوب المظاهرات وإعطاء دور أكبر للطلبة فى الحياة السياسية ، ورغم تأسيس جميعات للطلاب المصريين فى الخارج للمطالبة بالاستقلال إلا أن ذلك لم يؤتى ثماره بسبب تلك الخلافات ، وكانت القشة التى كما يقال قصمت ظهر البعير فى إجبار محمد فريد على الهجرة إلى الخارج . الأحداث التالية :-

أولاً : دخول محمد فريد السجن حيث انتهزت الحكومة المصرية فرصة قيام محمد فريد بكتابة مقدمة ديوان شعر وطنى بعنوان "مآثر الشعر فى تربية الأمم"، والتى قال فيها أن استبداد حكومة الفرد دمار للشعب وخطر على الملوك أنفسهم لأن حكم الفرد يؤذى كرامة المواطنين مؤكداً على أن الأشعار الحماسية من قديم الزمان شائعة لدى العرب وغيرهم من الأمم المجيدة كالرومان واليونان ، كما ضرب مثلاً بالأنشودة الفرنسية التى أنشدها أحد الضابط الفرنسيين والتى كانت من أقوى أسباب انتصار فرنسا على ملوك أوروبا الذين عمدوا إلى القضاء على حرية شعوبهم .

واستكمل فريد فى مقدمته القول بأن الأمم المغلوبة على أمرها تنبهت لهذا الأمر فجعلت من أول مبادئها وضع القصائد الوطنية والأناشيد الحماسية باللغة الفصحى للطبقة المتعلمة وباللغة العامية لطبقات الزراع والصُناع وسواهم من غير المتعلمين فكان ذلك من أكبر العوامل على بث روح الوطنية بين جميع الطبقات .

وختم مقاله بدعوة الشعراء إلى استعمال قلمهم فى خدمة الأمة وتربيتها بدلاً من استخدامه فى خدمة الأغنياء وتملق الأمراء والتقرب من أصحاب السلطان ، معلناً أن الحكام زائلون والأمة باقية ومؤكداً على أن من سمع ووعى وسعى لخدمة بلاده فإن سعيه سوف يرى ثم يجزاه الجزاء الأوفى.

وكتب أيضاً معه الشيخ عبد العزيز جاويش مقدمته مما أدى إلى الإيعاز للنيابة العامة بإقامة الدعوى العمومية على المؤلف الشيخ على الغاياتى والشيخ عبد العزيز جاويش ومحمد فريد .

وفى الواقع أن الاتهام كان قاسياً حيث عدته النيابة شريكاً فى تهمة إثارة الخواطر والتحريض على الفوضى وبالفعل فإنه فى شهر أغسطس سنة ١٩١٠ كان قد تم الحكم على الشيخ جاويش وعلى على الغاياتى . وصودر الكتاب .. ولعل الحكومة بهذا الحكم كانت تأمل ألا يعود محمد فريد الذى كان خارج مصر فى ذلك الوقت يدافع عن قضيتها .. وأشاع خصومه أنه لن يعود خوفاً من الحكم عليه ولكنه نفى هذه الشائعة وكذلك نفاها عنه أصدقاؤه المقربون .. وقد بلغت الوطنية الصحيحة فى بيت محمد فريد حد أنه تلقى من ابنته فريدة خطاباً بتاريخ ١٤ أغسطس تطالبه بالحضور إلى مصر حيث قالت :-

" ولنفترض أنهم سيحكمون عليك بمثل ما حكموا به على الشيخ عبد العزيز جاويش فذلك أشرف من أن يقال أنكم هربت وما تحملتم الهوان فى سبيل وطنكم " ، وختمت خطابها بقولها :- " وأختتم جوابى بالتوسل إليكم باسم الوطنية والحرية التى تضحون بكل عزيز فى سبيل نصرتها أن تعودوا وتتحملوا آلام السجن " .

أليست هذه بطولة من جانب ابنة الزعيم تؤكد ثمرة الوطنية الحقة التى غرسها محمد فريد فى أقرب الناس إليه وأعزهم لديه .

عاد محمد فريد فى أواخر ديسمبر سنة ١٩١٠ ، وما كاد يصل أرض الوطن حتى بدأت النيابة العمومية تحقق معه حيث استجوب فى ٤ يناير سنة ١٩١١ وحوكم محاكمة صورية ، وكانت المحاكمة برئاسة انجليزى هو "المستر دلبر" وعضوية كل من أحمد ذو الفقار وأمين على وجلس فى كرسى النيابة محمد توفيق نسيم وكل من الثلاثة كان يحمل لقب بك ، ولم يحضر مع محمد فريد أحد من المحامين اعتقاداً منه أن التهمة فى ذاتها لا تحتاج إلى دفاع .

واستغرقت المحاكمة ساعة واحدة تقريباً ثم خلت هيئة المحكمة للمداولة وعادت بعد بضع دقائق لتصدر حكمها بحبس محمد فريد ستة أشهر مع النفاذ .

وقد قوبل الحكم بالسخط والدهشة من أنصار محمد فريد وخصومه على السواء .. ووضح جلياً أن الحكم جائر وظالم وأنه لا يتوافق مع المقدمة التى كتبها محمد فريد للكتاب المذكور .. وأن المسألة عبارة عن تصفية حسابات من جانب الاحتلال والخديوى والوزارة .

تلقى محمد فريد الحكم بقلب ثابت ولم يفارقه هدوءه الذى كان يلازمه من قبل ، وطلب وهو ذاهب إلى السجن - سجن الاستئناف بباب الخلق حيث قضى مدة حبسه - بعض الكتب ليطالعها .. وحضر لوداعه بعض أنصاره وبعض الشباب الذين لم تفارقهم الدموع فطلب منهم فريد الثبات والشجاعة .. وقد كتب الشاعر أحمد نسيم قصيدة بليغة بعنوان "إلى الرئيس فى سجنه" :

يا ليت سجنك لم يكن بمقدر

فاصبر على المقدور ستة أشهر

أمحمد ما أنت أول مبتلى

بالفادحات من الزمان الأقدرى

وختم قصيدته بقوله :-

فعليك ما حييت تحية وسلام

كسرى فى الملوك وقيصرى

كانت حادثة سجن محمد فريد موضع مساومة حيث حاول مدير مصلحة السجون أن يساومه نظير تغيير مبادئه وتخفيف لهجته ، ولم يلبث أن زاره الدكتور عثمان غالب موفداً من قِبل الخديوى ليعرض عليه مسألة العفو وقال له أن الخديوى مستعد للعفو عنه لو قدم طلباً بذلك فقال له محمد فريد فى جملة خالدة :-

" أنا لا أطلب العفو ولا أسمح لأحد من عائلتى بطلبه عنى وإذا صدر العفو فلن أقبله " .

خرج محمد فريد من السجن ١٨ يوليو ١٩١١ (٢٢ رجب ١٣٢٩هـ).. وقد

أخفت الحكومة على الناس موعد الإفراج حتى تحرمه من ملاقاة الجماهير التى كانت تنتظره.

خرج محمد فريد أكثر ثباتاً على الجهاد وعزماً على الكفاح لأجل مصر ، وكتب يوم خروجه من السجن مقالاً رائعاً عنوانه " من سجن إلى سجن " حيث قال :-

" مضى عليّ ستة أشهر فى غيابات السجن ولم أشعر أبداً بالضيق إلا عند اقتراب أجل خروجى لعلمي أني خارج إلى سجن آخر وهو سجن الأمة المصرية الذى تحده سلطة الفرد ويحرضه الاحتلال .. نعم إن كل أمة هضم حقها وحرمت دستورها واستبدت بإدارتها حكومة فردية تعززها الجيوش الأجنبية .. أمة سجينة " .

وختم مقاله بقوله : " إن حزبنا سيظل حزب التقدم وإن شعارنا كان ولم يزل وسيكون دائماً إلى الأمام إلى الأمام " .

أما السبب الثانى بعد حادثة السجن والذى أجبر محمد فريد على الهجرة إلى الخارج لمواصلة كفاحه وجهاده ، فكان هو تعسف الحكومة المصرية والاستعمار البريطانى فى موقفهما ضد الحركة الوطنية .

أما السبب الثالث فهو تضييق الخناق عليه بصفة شخصية بعد ظهور النوايا السيئة من جانب الاحتلال والسُلطة الحكومية بمنع الاحتفالات فى المناسبات الوطنية والتضييق على الوطنيين أعضاء الحزب الوطنى ، وانتهاء الأمر بتربص قوى الاحتلال بمحمد فريد بعد خطبته فى مؤتمر الحزب الوطنى فى ٢٢ مارس سنة ١٩١٢ ، حيث لم يكد يمضى يومان على خطبته فى هذا المؤتمر حتى شرعت الحكومة المصرية فى اتخاذ الإجراءات حيث استجوبته النيابة صباح الإثنين ٢٥ مارس فى بعض فقرات خطابه معتبرة إياها تحريضاً على كراهية الحكومة .

وفى الواقع أن الخطاب إذا ما قيس بخطب محمد فريد السابقة لكان معتدلاً بالنسبة للهجته المعتادة ولكن الاحتلال كان يأبى أن يظل محمد فريد حاملاً لواء الحركة الوطنية .

وبدأت النيابة تستعد لرفع الدعوى العمومية عليه ، ولم يحضر محمد فريد المحاكمة فصدر الحكم عليه غيابياً بالحبس سنة .

عندئذ أدركت القوى الوطنية المخلصة لمحمد فريد ضرورة هجرته إلى المنفى حتى يتمكن من متابعة جهاده فى الخارج ويرفع صوت مصر وينادى بحريتها واستقلالها ويعبر عن مطالبها وآمالها .

وهكذا قصد محمد فريد وبعض زملائه الأسكندرية وحجزوا تذاكر على الباخرة الروسية أولجا التى تقوم من الأسكندرية قاصدة الميناء اليونانى برية ومنها إلى الأستانة وتم ذلك يوم الثلاثاء ٢٦ مارس .

وقد سافر محمد فريد دون أن يخبر أولاده ولا أحد من عائلته ، ولكنه أخبر زوجته بالأمر وأفهمها ضرورة سفره فاستقبلت الخبر بالرضا وشجعته على تحمل مشقة النفى ، ووصل إلى الأستانة صباح ٣١ مارس حيث استقبله الشيخ عبد العزيز جاويش والطلبة المصريون .

ورغم ترحيب الحكومة العثمانية به إلا أنه كان يظن السوء بها ، وقد تبين أنه على حق فلم يمر على سفره أسبوعان حتى طلبت الحكومة المصرية القبض عليه وعلى الشيخ عبد العزيز جاويش ، إلا أنهما شعرا بتربص بعض الجواسيس العثمانيين فتركا الأستانة إلى باريس ومنها إلى جنيف التى اتخذها مستقراً له .

والسطور التالية تحمل جهاد محمد فريد فى المنفى ، حيث كانت الفترة التى قضاها خارج مصر فترة نضال دائم حيث حضر الكثير من المؤتمرات وخطب فيها ، مثل مؤتمر السلام بجنيف فى سبتمبر ١٩١٢ ومؤتمر السويد من أجل حرية الشعوب المحتلة ، وزار بلجيكا وأعجب كثيراً بمقولة الملك "يوبولد الأول" ملك بلجيكا التى وضعت تحت تمثاله فى مدينة أنفرس:-

"لا يوجد عمل بين الأقدار الإنسانية أشرف من أن يدعى الإنسان للمحافظة على أحد الأمم وتثبيت دعائم حرياتها".

وكان من أهم ما قام به محمد فريد فى المنفى تأسيسه جمعية ترقى الإسلام وجمعية السلام بوادى النيل فى سويسرا وأيضاً دعمه لحركة الجمعيات المصرية

فى الخارج سواء بالمشاركة فى تنظيم عملها أو إلقاء محاضرات فيها أو تلبية دعواتها ، وكان اهتمامه واضحاً بجمعية مصرية فى سويسرا أطلق عليها جمعية أبو الهول .

حضر فريد مؤتمرات كثيرة كانت تدعوا إلى الحرية والعدالة الاجتماعية والممارسة الديمقراطية والنضال من أجل رفع مستوى الشعوب اجتماعياً واقتصادياً .

وكان فى كل مؤتمر يحرص على دعوة المجتمعين إلى قراءة التاريخ لأنه تجربة المجتمعات والشعوب التى يجب أن يتعظ منها الأمراء والملوك ، وكان يدعو الطلاب للمشاركة فى رحلات خارج بلادهم بهدف التعارف مع الشعوب والمجتمعات الأخرى .

ولعل من أهم المؤتمرات التى حضرها محمد فريد خلال تلك الفترة هو ذلك التجمع الكبير فى جنيف يوم ١١ ديسمبر سنة ١٩١٥ حيث صدر قرار باستقلال مصر .. وفى يونيو ١٩١٦ حضر مؤتمراً للأجناس عقد بلوزان حيث ألقى خطبة دافع فيها عن استقلال مصر وبطلان الاحتلال ، وفى مايو سنة ١٩١٧ حضر المؤتمر الدولى باستكهولم عاصمة السويد للدفاع عن القضية المصرية وبقى شهرين فى هذه المدينة يزور كل أحزابها وجمعياتها العلمية شارحاً قضية مصر ، وكان أعظم ما كتبه فى حياته تلك المذكرة التى بعث بها إلى الدول المحاربة والمحايدة بتاريخ ١٠ اكتوبر سنة ١٩١٧ مطالباً إياها عند انعقاد مؤتمر الصُلح بعد أن تقع الحرب أوزارها بإعلان استقلال مصر مؤكداً أن السلام العالمى يقتضى هذا الاستقلال .

وفى ١٨ ديسمبر ١٩١٧ أرسل مذكرة إلى الساسة المصريين وبعض قادة الدول الشرقيين وبعض الألمان يحتج فيها على الحماية البريطانية على مصر ، وعندما وقعت معاهدة برست ليتوفسك بين روسيا وألمانيا أرسل إلى المؤتمر الذى وقعت فيه المعاهدة رسالة أكد فيها أن المسألة المصرية مسألة دولية وطالب فى هذه الرسالة بالاعتراف بحق مصر فى أن تقرر بطريق الاقتراع العام مصيرها ورغبتها فى الطريقة التى تريد أن تحكم نفسها بها ، وعندما عقد مؤتمر الصُلح فى فرساى (أحد ضواحى باريس) أرسل محمد فريد تقريراً فى ٥ ديسمبر سنة

١٩١٨ يطالب فيه بمنح مصر استقلالها وبتقدير الحلفاء للجهود التى بذلتها لفوزهم فى الحرب ، ويؤكد فيه على أن أقل مكافأة لما عاناه المصريون مع الحلفاء فى الحرب هو منحهم الحرية والاستقلال .

أى أن محمد فريد انتهز وجوده فى ألمانيا وسويسرا للمشاركة فى العديد من المؤتمرات الدولية وخاصة تلك التى تدعو إلى حرية الشعوب والتصدى للاستعمار .. ورغم ذلك فإنه لم يعزل نفسه عن الأحداث فى مصر .

موقف محمد فريد من الحماية البريطانية على مصر :

فى ١٨ ديسمبر سنة ١٩١٤ تم إعلان الحماية البريطانية على مصر وقد سبق هذه الخطوة .. إعلان خلع الخديوى عباس حلمى الثانى الذى كان متواجداً فى زيارة للأستانة قبيل نشوب الحرب العالمية الأولى ، وكانت الدولة العثمانية قد أعلنت قيامها بمساندة أعداء بريطانيا فى ذلك الوقت (ألمانيا والنمسا والمجر) مما جعل بريطانيا تنتهز هذه الفرصة لتقضى على العلاقة العثمانية المصرية ولكى تجد لنفسها سنداً شرعياً لاستمرارها فى احتلال مصر(١).

وقبل اتخاذ بريطانيا خطوة خلع عباس كانت تفكر ملياً فيمن يجلس على عرش مصر ويلتزم بأوامرها وينفذ سياستها ولا يكون مشاغباً معها خاصة وأنها مقبلة على حرب ضروس لا يعلم أحد متى ستنتهى(٢).

وقد وجدت بريطانيا فى الأمير حسين كامل ابن الخديوى السابق إسماعيل بغيتها على أن يحمل لقب سلطان مصر .. وخوفاً من أن يرفض حسين كامل

---

(١) كان عباس حلمى الثانى هو ثانى أفراد أسرة محمد على الذين خلعوا من السلطة حيث كان الأول هو الخديوى إسماعيل الذى عزل فى ٢٥ يونيو سنة ١٨٧٩ بسبب التدخل الفرنسى البريطانى لدى السلطان عبد الحميد الثانى لخلعه وهذا السلطان إنتهز فرصة موافقة الدول الكبرى على ذلك أملاً منه فى سحب الأمتيازات التى حصل عليها إسماعيل من سلفه والتى أعطته مزيداً من الاستقلالية فى إدارة شئون مصر بينما عبد الحميد كان يريد أحكام قبضته عليها . وكان الملك فاروق هو ثالث أفراد اسرة محمد على الذين أطيح بهم من على عرش السلطة فى مصر حيث أجبرته ثورة ٢٣ يوليو على التنازل عن الحكم فى ٢٦ يوليو ١٩٥٢ لولى عهده الذى كان على موعد مع القدر للإطاحة به كآخر أسرة محمد على بعد إعلان الجمهورية المصرية فى ١٨ يونيو سنة ١٩٥٣ ... لقد عزل أثنان من أسرة محمد على يحمل كل منهما لقب خديوى على يد الأجانب وأثنان أخران على يد الشعب المصرى يحمل كل منهما لقب ملك . ويتضح لنا تاريخياً أن من تولوا من أسرة محمد على عددهم عشرة عزل منهم أربعة .

(٣) إنتهت الحرب العالمية الأولى يوم ١١ شهر ١١ الساعة ١١ سنة ١٩١٨ فى أعقاب إستسلام ألمانيا لشروط دول معسكر الوفاق .

قبول المنصب أطلقت بريطانيا إشاعة فى طول مصر وعرضها فحواها أن بريطانيا اعتزمت تنصيب الأمير أغا خان زعيم الطائفية الإسماعيلية على عرش مصر ، وكان هدف بريطانيا أيضاً تهيئة الرأى العام المصرى لقبول التنصيب بروح خالية من العداء والاستنكار .. وقد جاء بالفعل أغا خان إلى مصر وزار بعض المنشئات والمدارس العُليا وبعض دور التعليم وكان فى مقدمتها مدرسة طنطا الثانوية ، وكان ذلك بمثابة تأييد لشائعة تنصيبه على عرش مصر .. وقد حقق الانجليز من وراء هذه الزيارة كسباً حيث أن الرأى العام المصرى كان يفضل أن يحكمه أمير ينتمى إليه على أن يحكمه أجنبى غريب عنه .. وبعد هذه التمثيلية نجحت بريطانيا فى ١٨ ديسمبر سنة ١٩١٤ فى إعلان حمايتها على مصر .

ولكن علينا أن ندرك أن قرار إعلان الحماية كان قد سبقه قرار آخر لم يعلن عنه فى حينه ولكن كشفت عنه الوثائق البريطانية التى أذاعتها وزارة الخارجية البريطانية بمناسبة مرور خمسين عاماً عليها .. هذا القرار الآخر اتخذه مجلس البلاط البريطانى بحضور ملك بريطانيا يوم ١٩ نوفمبر سنة ١٩١٤ ، وكان يقضى بضم مصر إلى الممتلكات البريطانية وإلغاء سيادة سلطان تركيا عليها وإنهاء اعتبار مصر جزءاً من الممتلكات العثمانية .

أما السر وراء إلغاء قرار الضم هذا وإبداله بالحماية فيرجع إلى أن انجلترا رأت الرجوع فى شأن إعلانه إلى حليفتيهما فى الحرب روسيا وفرنسا ... وقد رحبت روسيا به على الفور حيث أكد وزير خارجيتها موافقة حكومته على هذا القرار وذلك بعد أن ألمح إلى رغبات روسيا فى القسطنطينية طمعاً فى البوسفور والدردنيل .

أما فرنسا فقد اعترضت على مشروع الضم ورأت تأجيله إلى ما بعد الحرب، ومقابل هذا أعلنت الحكومة الفرنسية عدم رغبتها فى ضم مراكش إليها فى ذلك الوقت .. ومن ناحية أخرى ، فإن رجال دار المعتمد البريطانى لم يؤيدوا القرار إدراكاً منهم لما قد يؤدى إليه ذلك من انفجار الشعب المصرى فى ثورة لا يمكن التنبؤ بنتائجها .

ولما أعلنت بريطانيا الحماية على مصر ، قابلها المصريون بالاستنكار الشديد .. ونظراً لخوف بريطانيا من أن يتحول الأمر إلى ثورة شعبية وقلاقل واضطرابات ، قامت باعتقال بعض دعاة الاستقلال من الوطنيين المصريين وقامت بنفى البعض منهم إلى جزيرة "مالطة" ، وكان من أكثر من تعرضوا للاعتقال والسجن والتشريد أعضاء الحزب الوطنى .

وكان محمد فريد ينتهز كل مناسبة فى أثناء تواجده فى المهجر للتنديد بالحماية البريطانية وإبراز مدى معاناة الشعب المصرى تحت وطأة هذه الحماية .

لقد كان محمد فريد مثقفاً بأرفع ألوان الثقافات .. وذلك الانطباع تركه فى كل كتاباته ، كما كان قانونياً وأديباً وخطيباً مفوهاً باللغتين العربية والفرنسية ، وكان بطلاً فذا من أبطال النضال والكفاح الوطنى راسخ الإيمان لوطنه وأمته لا تلين له عزيمة .. لم تزعزعه الشدائد ولا الاضطهادات ، ولم تغره أعلى الوظائف شأناً والتى حاولت الحكومة أن تستميله بها ، ولم يبهره المال الذى عرض عليه من جانب الاحتلال أو ممن كانوا يسيرون فى ركابه فى وقت كان فى أشد الحاجة إلى المال لطعامه وعلاجه من علة مرضية لدرجة أنه قيل أنه امتهن قطع الأخشاب فى الغابات ليجد قوت يومه .

الفصل السادس
بداية النهاية
آخر أيام محمد فريد

كانت آخر رسالة كتبها محمد فريد فى حياته من مدينة "ترينتيه" Terintet بسويسرا ، حيث كان يستشفى من مرضه .. هذه الرسالة أرسلها إلى الأمة بمناسبة ذكرى مرور ٣٧ عاماً على الاحتلال البريطانى لمصر.. وكانت بتاريخ ١٤ سبتمبر ١٩١٩ وعنوانها "صوت من وراء البحار" وكانت على النحو التالى:-

"إخوانى المصريين الأعزاء .. إن الصوت الذى يناجيكم اليوم لصوت منعته الظروف عن الارتفاع فى صحف مصر، من نحو سبع سنوات، ولكن منعه عن الارتفاع على ضفاف وادى النيل لم يكن عقبة تعوقه عن الدفاع عن القضية المصرية فى عواصم أوروبا، سواء قبل هذه الحرب أو أثنائها أو بعدها .

إن صوت هذا الضعيف لم يخفت يوماً واحداً، ولم يتأخر عن القيام بما تفرضه عليه الوطنية طرفة عين ، بل كان يزداد قوة ونشاطاً، كلما تراكمت أمامه الموانع وتكدست العقبات .

إن هذا الصوت يناجيكم اليوم من وراء البحار ، ليهنئ الأمة المصرية على تضافرها وتضامنها فى المطالبة بحق أمنا المظلومة "مصر" لا فرق فى ذلك بين أبنائها وبناتها، مسلمين وأقباط، مما كان له دوى فى أوروبا أخرس المتهمين إياهم بالتعصب الدينى، وهم يعلمون أنهم لكاذبون، وقضى القضاء الأخير على دعوى أن المصريين اتفقوا على ألا يتفقوا .

إننى لعاجز عن وصف ما شملنا من السرور نحن معاشر المصريين المقيمين خارج الديار، عند وصول هذه الأخبار المنعشة إلينا، ولو أنها كانت تأتينا مقتضبة مبتورة، حتى أصبح المصرى فى أوروبا عالى الرأس مفتخراً بمصريته أضعاف ما كان يفخر بها قبل الآن .

إننا كنا ننتظر صحف مصر انتظار الظمآن للماء، لنقف منها على أخبار هذه الحركة المباركة، وهاتيك المظاهرات السلمية، ونشكر الله على هذه النتيجة الحسنة التى دلت على أن ما ألقاه مؤسسو الحركة الوطنية من البذور فى تلك الأرض الخصبة قد نبت وترعرعت ساقه ثم أزهر وظهرت ثماره الشهية التى قد قرب زمن جَنْيِهاً ، كل ذلك بفضل نشاط الشبيبة العاملة وإرشاد الشيوخ لها إلى أحسن طريق لجنى أشهى تلك الثمار ، وهو الاستقلال التام، بفضل جهود الأمة بلا تباطؤ أو اعتماد على الغير، لا يؤثر فيها غدر السياسيين، أو نكرانهم لما أعلنوه وأذاعوه من مبادئ عادلة ، استعملت ستاراً لإخفاء مطامع وتغريراً وتضليلاً للوصول إلى استعباد شعوب كريمة لا تطلب إلا أن تعيش فى بلادها آمنة مطمئنة، صديقة لسواها من الأمم ، وأن تعاملها تلك الأمم معاملة الند لنده، والقرين لقرينه، طبقاً لحقوق الأمم الطبيعية والقانون الدولى .

لكن لا تتطيروا أو تفرحوا لكل ما يصل إليكم، حتى إذا ما انقشعت سحب الأوهام وظهرت شمس الحقيقة، لا يكون حالكم كالمسافر فى الصحراء يرى السراب فيظنه واحات غناء، فإذا ما وصل إليه لا يجده شيئاً، وإياكم أن تنسوا عبر التاريخ، وليكن دائماً أمام أعينكم ، فمنه تعلمون الحقيقة ولتنتظروا خاتمة الأعمال لإصدار حكمكم عليها .

أيها الأعزاء ..

أكتب هذه السطور اليوم وذكرى ١٤ سبتمبر سنة ١٨٨٢ تملأ فؤادى حزناً وأسى على مصرنا العزيزة، وما انتابها من الحوادث الماضية على استقلالها ولكن أرى فجر الأمل يرسم على الأفق خطاً من النور اللامع، نأمل أن يكون طليعة حريتنا المنشودة واستقلالنا المرجو .

سلام عليك أيها الوطن المفدى .. سلام على النيل وواديه .. سلام على الأهرام وبانيها .. سلام على خدام مصر المخلصين ... سلام على شهداء الحرب".

ترينتيه فى ١٤ سبتمبر سنة ١٩١٩ .

هـذه كانت آخـر كلمـات محمد فـريد إلـى وطنه وإلـى مـواطنيه وإلـى مصـر الحبيبة، وقبل كتابته هـذا الخطاب بخمسة أشهر كان يستشفى فى مصحة ليمان Leman بسويسرا وأقام بهـا نحو ستة أسابيع شعر فى بدايتها بتحسن ، لكن بدأ رشح الماء فـى تجويف البـطن يشتد مما كان يستدعى بذله من وقت لآخر إلا أن الدكتور أكنور شـرونف Schrunph الذى كان يشرف على علاجه مدة إقامته فى برلين نصحه بالتوجه إلى سويسرا .. ورغم كل ظروفه إلا أنه تحامل على نفسه وسافـر إلى مدينة لوسرن يوم ٢٩ يوليو من نفس العام لحضور المؤتمر الدولى الاشتراكى ليـرفع صوت مصر وعاد بعدهـا إلى جنيف التى كان يتخذهـا مقراً وفيهـا زاد ماء الـرشح وكان يـرافقه الـدكتور عبد العزيـز عمـران الذى شعـر بأن ملاك الحركة الـوطنية على وشك الموت فأبـرق إلى الوفـد المصرى بباريس يشرح حالته ولكنه للأسف لم يتلق أي رد ، وظل محمد فريد يعانى كل يوم بشكل أشد من اليوم السابق عليه فنصحه الأطباء بعملية قيل أنها تشفى الترشيح المائى[1]، وكان كل من الـدكتور عبـد العزيـز عمران وإسمـاعيل لبيب يتناوبـان على ملازمته فى المصحة واضطر للسفر إلى برلين حيث دخل مصحة الدكتور "ستوكمان" بالدار رقـم ٩٧ شارع مـارتن لإجـراء العملية ولكن شاءت الأقـدار أن ينتهى أجله فيلفظ روحه قبل أن يجرى هذه العملية .

حـافظ محمـد فـريد فـى آخـر لحظـات حيـاته علـى شجـاعته وصبـره وتجلت وطنيته فى ساعة الخطر، كمـا كانت تتجلى فى ساعـات الجهاد العصيبة التى كان يواجهها فى كل أدوار حياته .

وقـد شيعت جنـازته فى المهجـر فى احتفـال مهيب ، وقبل تحـرك الجنـازة ألقى الشيخ عبـد العزيز جاويش أمام الجثمان كلمة مـؤثرة فى وداع الفقيـد قال فيها " أيهـا السـادة : أمام جثـة هـامـدة، وميت لا يـعى نحن واقفـون ، كلا .. ثم كلا ، إنما نحن وقوف أمام صفحات من تاريخ الجهاد الأكبر فى سبيل الحرية البشرية ، فى سبيل الـزود عن الحقوق الـطبيعيـة للشعـوب الإنسـانية فـى سبيل مصـارعة الأمم القوية ، ذوات المطامع .

(١) كانت عملية جراحية فى الوريد الكبدى .

نحن وقوف أمام هذا الراحل الكبير، الذى كانت حياته مثالاً كاملاً للمناضلين وقدوة صالحة للمجاهدين ، فها هى صفحاتها الناصعة ، ترينا كيف جمع فقيدنا العزيز، إلى صلابة العزم، جهاداً لا يوهنه الملل، ولا يوحيه الكلل، كما ضم إلى الصراحة البالغة، فى كتابته وكلامه، إقداماً يستهزئ بالغوائل، ويسخر من كارثات النوازل، لقد رأيناه رحمه الله يوم ساقه الانجليز إلى السجن فى مصر لقضاء ستة أشهر كاملة قضاها فى غيابته وظلماته .

ضيق الانجليز المذاهب على فقيدنا ، وأخذوا الأبواب والمسالك على قلمه ولسانه، فلم يجد بداً من مفارقة وطنه ، وأولاده وعشيرته إذ خرج يلتمس فضاء يسع صيحاته ، التى ضاق بها فضاء بلاده ووقرت دونها آذان أعدائه .

جاهد رئيس الحزب الوطنى فى سبيل تحرير بلاده وكان يرجو ألا تعاجله منيته، قبل أن يراها خالية من ظل الجبابرة المغتصبين ، ولكننا رأيناه رحمه الله ، قبل وفاته قرير العين ، مشروح الصدر ، إذ أبصر كيف تشيد أمته النجيبة على ما أقامه هو وسلفه الصالح مصطفى كامل باشا من الدعائم المتينة صرح الحياة والاستقلال، ذلك الصرح الذى يعانق يوماً ما الأهرام ويدوم مع تعاقب الجديدان.

أبصر الرئيس كيف تبنى أمته الكريمة حياتها الحرة المستقلة ، بما يتساقط من رؤوس أبنائها ويتمزق من أفلاذ أكبادها وبما يتدفق من دماء شهدائها ، أبصر فريد كيف أصبحت قواعد الحزب الوطنى الذى يرأسه عقيدة كل فرد من أفراد الأمة ، وغاية كل مجاهد من رجالها ، أبصر فريد كيف اتحدت كلمة الشعب وتعاقدت خناصره ، إذ ألف الله بين قلوب أحزابه وطوائفه ، فأصبحوا بنعمة الله أخوانا ، وكانوا على شفا حفرة من النار ، فأنقذهم الله منها .

أبصر فريد كيف نافس أطفال الأمة فى سبيل الوطن المفدى الشيوخ ونساؤها الرجال ، ومسيحيوها المسلمين ، وكيف تعانق الهلال والصليب وائتلف القرآن والإنجيل ، وتعانق الشيخ والقسيس .

أبصر فريد بعد أن سدت السُبل أمامه وأمام اللجنة الإدارية للحزب فى أوروبا، كيف ترسل الأمة الوفود، وتريق الدماء فى سبيل تأييدها ونصرتها، أبصر

فريد جميع ذلك، فلا عجب إذا وجدناه يقابل أمر الله الذى لا مرد له بذلك القلب الممتلئ بالآمال العظام والثقة البالغة من أنه سيطهر وطننا العزيز من أعدائه، ويحرر رقاب أمتنا العزيزة من أطواق الاستعباد .

وإذا كانت حياة الرجال أيها السادة خيراً للأمم التى يخدمونها . فكم منهم من أفاد بمماته ما أفاد حياته ، إن فريد بتلك الجثة الهامدة ، والنسمة الجامدة ، إنما هو تلك النفس الأبية والقدوة الصالحة ، والذكرى الطيبة ، التى سيجددها بلى الأيام ويوالى نشرها انطواء العصور والأجيال، فطوبى لمن سن سنة حسنة، وطوبى ثم طوبى لمن اقتدى بالعاملين .

والآن نستودعك أيها الرئيس المحبوب ، فنم مغموراً برحمة الله وإحسانه، مزوداً من أمتك بالدعوات الصالحة ، والذكرى العطرة، والحب الدائم ، والسلام عليك ورحمة الله وبركاته " .

وضع الجثمان بجوار جثمان الأمير محمد عبد القادر ، نجل الخديوى عباس تمهيداً لنقله إلى مصر عندما تسنح الفرصة ، وألقى البارون "أو بنهايم" كلمة بالألمانية فى رثاء الفقيد، ونشرت على النعش الزهور والرياحين المقدمة من وفود المصريين والشرقيين والأوروبيين .

وبعد يومين من وفاته علمت مصر كلها بالنبأ فنشرت الصحف الخبر وعم الحزن أرجاء البلاد وأخذت الصحف تؤبنه بما يستحقه مقامه فى الحركة الوطنية ، بل أن الصحف الأوروبية فى كل من سويسرا وفرنسا وإيطاليا وألمانيا لم تبخل عليه بنشر رثاء كامل تضمن الكثير منه سطور كفاحه ونضاله من أجل وطنه ولعل ما جاء فى الأهرام بمثابة نعى له فيه الضوء الكافى لقصة كفاحه .. لقد كتب فى الأهرام :-

" مات محمد فريد – وكفى بإسمه وصفاً لحياته – غريباً عن وطنه حباً بذلك الوطن، فأحياه موته، وهو غريب مجاهد ، فى قلب كل مصرى وكل محب لمصر، وخلده جهاده لإنقاذ هذا الوطن فى التاريخ، إلى جانب كل رجل عظيم ووطنى كبير فى كل أمة من الأمم استمات فى حب الاستقلال، فمات وحياة أمته فى

عنفوان الشباب وخفت صوته وأصوات أمته الهاتفة اليوم هتافاً ترتفع إلى الجوزاء وتردد فى جنبات كل قارة ومصر، وتقع فى آذانه وهو ذاهب إلى ربه قرير العين، بما قدمت يداه، مثلوج الفؤاد بما رأت عيناه، فإذا أرسلت الأهرام اليوم ، دمعة على قبره فإنها ترسل هذه الدمعة الحرة، ذاكرة نهضته فى صباه من بين أقرانه، يمدها بآرائه وأفكاره، يوم كانت الكتابة فى الصحف تُعد على أمثاله من أبناء الباشاوات العظماء، عاراً يماثل الجريمة ، ولكن فريد – رحمه الله – حطم تلك القيود، ونزع إلى الحرية وخدمة الوطن، بالقول والفعل .

ولا يختلف اثنان على إخلاص محمد فريد لوطنه ، وتفانيه فى محبته . حتى ذهب اليوم إلى ربه بجبهة ناضرة، تبكيه مصر لأنها فقدت ابناً من أصدق أبنائها إخلاصاً، وأكثرهم جهاداً، وتتعزى عن فقده بناشئة كريمة ناهضة، كلها فريد، وكلها عامل عمله، بل كلها متم ذلك العمل الجليل الذى يتطلب شهداء ، ويريد ضحايا ، ككل الأعمال الجليلة، فإذا ما قلنا اليوم، والحزن ملء الفؤاد " هذا رجل مات " نقول والصدر منشرح : " ولكن الرجال فينا غير قليل " وموته فى ديار الغربة فى سبيل الخدمة لأعظم برهان يقام فى هذا الأوان على الذين تكافحهم مصر ويكافحونها، وتجالدهم السياسة ويجالدونها مجالدة الأبطال، لا ينظرون إلى الوراء ، بل ينظرون إلى الأمام، وأعينهم قيد أكاليل النصر، وروح شهدائهم معهم لا ترضى أن تذهب عبثاً ، وتناجيهم ليرضوها ويبرروا مفاجعها بإبلاغ مصر أمانيها " .

وأكدت جريدة الايجبشيان ميل على أن محمد فريد أول زعيم وطنى بذل ماله من أجل الوطن ، فكان بذلك مثلاً نادراً فى الشرق وفى مصر على الخصوص لمن يفدى مستقبل وطنه بكل ما يملك .

ورثاه عبد الرحمن الرافعى المؤرخ المعروف فى كلمة نشرتها جريدة مصر تحت عنوان "إلى الفقيد العظيم .. الرئيس الراحل الكريم " بتاريخ ١٩ نوفمبر سنة ١٩١٩ جاء فيها :-

" اليوم تلبس الوطنية المصرية ثوب الحداد حزناً على أبر أبنائها وأكبر

خدامها، من بذل فى سبيلها حياته وصحته وماله، ووقف على خدمتها قلمه ولسانه وبيانه وجنانه، مات فريد، وانطفأ سراجاً وهاجاً طالما قرأ المصريون على ضوءه الساطع آيات الإخلاص ودروس الشجاعة والثبات ، انطفأت تلك الشعلة الوطنية الفياضة بنور المبادئ العالية ، ذهبت تلك النفس الكبيرة التى كانت تبعث فى القلوب روح المثابرة والإقدام، وروح الأمل والإيمان، روح التضحية الكبرى، روح التفانى فى خدمة الأوطان " .

ونعاه الحزب الوطنى ونعاه أيضاً الوفد المصرى فى خطاب أرسلته لجنة الوفد المركزية إلى أسرته فى القاهرة.

وتوالت الأحداث حيث ظل الجثمان حتى شهر يونيو سنة ١٩٢٠ حبيس صندوقه الحديدى حتى وصل إلى الأسكندرية فى تمام الساعة الرابعة والدقيقة الخامسة والأربعين من صباح يوم الثلاثاء ٨ يونيو ١٩٢٠ على ظهر الباخرة حلوان .. ظهر الجثمان محمولاً وعلى ظهر التابوت علم مصر الخالد ، وكان فى استقباله أعضاء اللجنة الإدارية للحزب الوطنى ولم تنس الجماهير تحية الحاج خليل عفيفى بطل واقعة إحضار التابوت من برلين إلى الأسكندرية .

بقى أن نذكر بعض الأبياب الشعرية التى قيلت رثاءً للفقيد ... بقصيدة ألقاها الأستاذ مرسى شاكر الطنطاوى عندما وصل قطار الجنازة إلى بنها فى نحو الساعة الرابعة صباحاً وكانت ردهة المحطة غاصة بجماهير المحتشدين الذين جاءوا لتحية الفقيد .

لتحيى ذكراك يا فريد
وليحيى تاريخك المجيد
من ذا يباريك فى المعانى
وفى يد صنعها حميد
جاهدت صرف الخطوب حتى
لان لآياتك الجمود
فكن على مصر فى أمان
إنا على العهد لا نحيد

وكان المجتمعون يرددون هذه الأبيات شطراً شطراً، فكانت تحية بليغة لروح الزعيم .

وقد رثاه الشاعر العظيم أحمد شوقى بقصيدة تليت على ضريحه نذكر منها:-

كل حى على المنية غادى
تتوالى الركاب والموت حادى
ذهب الأولون قرنا فقرنا
لم يدم حاضر ولم يبقى بادى
هل ترى منهمو وتسمع عنهم
غير باقى مآثر وأيادى
كرة الأرض كم رمت صولجانا
وطوت من ملاعب وجياد
الغبار الذى على صفحتيها
دوران الرحى على الأجساد

وكان من أعظم من رثاه حافظ إبراهيم حيث قال :-

ها هنا قبر شهيد هوى
أمة أيقظها ثم رقد

وفى أواخر نوفمبر ١٩١٩ كان الحزب الوطنى قد قرر إنشاء مستشفى للعمال تحمل اسم محمد فريد تخليداً لذكراه .

وتعددت خطب الرثاء للزعيم نذكر منها خطبة على فهمى كامل وخطبة مندوب غبطة البطريرك وخطبة أمين بك الرافعى ، ونختتم كلامنا عن الرثاء بقصائد خليل مطران والأمير شكيب أرسلان والشاعر أحمد محرم وقصيدة لعباس محمود العقاد وإبراهيم عبد القادر المازنى والشاعر أحمد نسيم وكلها قصائد تعبر عن روح وطنية عالية وتردد ما فعله الفقيد وتؤكد روح الوطنية التى زرعها فى قلوب المصريين وغيرهم من شعوب الشرق كله وبقى أن نحكى عن الساعات الأخيرة فى حياة محمد فريد .

وفاة محمد فريد

عاش محمد فريد حياته فى المنفى فى أوروبا منذ أن غادر الأراضى المصرية فى ٢٧ مارس سنة ١٩١٢ وقد وافته المنية وحيداً وفقيراً فى ١٥ نوفمبر من عام ١٩١٩ عن عمر لا يتجاوز الثانية والخمسين ..

مات محمد فريد ولكنه لم يمت لأن الشهداء أمثاله لا يموتون قط فأرض الوطن تحفظهم أحياء ...

مات وكانت أمنيته ألا توافيه المنية إلا بعد أن يرى مصر حُرة مستقلة جلا عنها الانجليز ولها دستور تحكم به يحميها من ديكتاتورية الحكام .

توفى محمد فريد بعيداً عن وطنه بعد أن اشتد عليه المرض وحفظت جثته فى صندوق حديد فى إحدى كنائس برلين، لأن الحكومة البريطانية فى ذلك الوقت رفضت عودة جثمانه إلى بلده ووطنه ... وفى نفس الوقت أمرت السلطات البريطانية الحكومة المصرية، بألا تدفع نفقات نقل الجثمان من برلين إلى القاهرة وكان أهله بمصر غير قادرين على تحمل تكلفة نقل جثمان الزعيم البار...

كان الفقيد يشكو وهو فى مصر من مرض الكبد الذى اعتراه وهو فى سن الشباب ، وكان يذهب بين الحين والآخر إلى "فيشى" للاستشفاء من هذا الداء، ولما هاجر من مصر إلى أوروبا تأثرت حالته الصحية بسبب الغربة وتنقله فى البلاد الأوروبية ذات الجو البارد، كما أنه أجهد نفسه فى العمل من أجل القضية الوطنية بشكل متواصل تجسد فى الكتابة فى الصحف والمجلات أو الخطابة فى المحافل والمؤتمرات وكذلك تعدد لقاءاته مع المصريين والشرقيين والأوروبيين وكذلك حرصه على تبادل مراسلاتهم معه .. كل هذه الجهود أثرت فيه بشكل مضنى .. بالإضافة إلى أنه تصادف أن جاء شتاء سنوات ١٩١٨، ١٩١٩ فى أوروبا على غير العادة شديد البرودة .

وقد حافظ الزعيم أثناء مرضه الأخير على شجاعته وصبره، وتجلت وطنيته فى ساعة الخطر، كما كانت تتجلى فى ساعات جهاده التى كان يواجهها فى كل مراحل نضاله .

ولما لمح شبح الموت يقترب منه فى الأيام الأخيرة قال لمن حوله :-

" لست أخاف الموت، لأن الموت حق لابد منه ولكن كل ما كنت أتمناه أن أرى مصر متمتعة بتمام استقلالها " .

ولما أيقن أنه سوف يفارق الحياة دون أن يرى استقلال بلاده استسلم للموت وجمع إخوانه الموجودين حوله وأوصاهم بالاتحاد وأن يبثوا بين أبناء الوطن هذه الروح السامية التى تحفظ كيانهم وتقرب استقلالهم . وكانت أخر كلماته : -

" إنى أنا وأولادى وكل عزيز لدي فداء لمصر .. لقد قضيت بعيداً عن مصر سبع سنوات فإذا مت فضعونى فى صندوق واحفظوه فى مكان أمين حتى تتاح الفرصة لنقل جثتى إلى وطنى العزيز الذى أفارقه وكنت أود ان أراه " . ثم دخل فى غيبوبة وأسلم الروح فى منتصف الساعة الحادية عشرة من مساء يوم السبت الموافق ١٥ نوفمبر سنة ١٩١٩ .

وأبلغ الدكتور عبد العزيز عمران النبأ الفاجع إلى إخوانه المصريين ببرلين ، فأصبحوا يعزوهم الحزن ويحز فى نفوسهم الألم وأخذ يعزى بعضهم بعضاً ، وما لبث ان انتشر الخبر فى أنحاء العاصمة الألمانية حيث قامت صحفها بنشر الخبرالذى أبرق إلى مصر وسويسرا و العواصم الأوروبية الأخرى .

وفوراً قرر المصريون الاحتفال بتشييع جنازة الزعيم ببرلين احتفالاً يليق بمقامه ومنزلته ، ووضع جثمانه بعد تجهيزه فى تابوت من حديد لكي يمكن نقله إلى مصر عندما تسنح الفرصة بذلك .

ثم بادر أحد تجار الخشب من مديرية الزقازيق وأبدى استعداده لإحضار الجثمان الطاهر وتكفل باستخراج التصاريح اللازمة ودفع كافة النفقات على حسابه الخاص . هذا التاجر كان يُدعى خليل عفيفى ، ورغم أن تلك الفعلة كانت تعتبر تهوراً من وجهة نظر الكثيرين إلا أن هذا الرجل خلد نفسه بهذا العمل ... لقد كان خليل عفيفى أحد مواطنى مصر الذين عشقوا ترابها وأعجبوا بمحمد فريد فى نضاله من أجل الوطن . وكان يتألم لبقاء فريد بعيداً عن مصر ... وكان يقول لمن حوله " إن الحياة السياسية فى بلادنا تنتهى دائماً بالدموع " .

اعتبر خليل عفيفى أن ما قام به ليس عملاً جنونياً كما اعتقد البعض ولكنه أقل ما يُقدم لوطنية محمد فريد التى دفعت الحاج خليل ليصنع المستحيل لاستعادة جثمان أحد زعماء بلاده من الخارج غير عابىء بكل العقبات التى واجهته .

وعند مجيء الجثمان إلى الاسكندرية حظى محمد فريد بموكب جنائزى مهيب وظلت دموع أبناء مصر تنساب خلال انتقاله عبر الدلتا إلى القاهرة .

كان الحاج خليل عفيفى من أبناء مدينة الزقازيق ، وقد أرقه أن تترك مصر رفات زعيمها بعيداً عن الوطن منفياً وهو حي ومنفياً وهو ميت ، فعقد العزم على تخليص جثة البطل الشهيد من غربته وسافر إلى ألمانيا وأقسم ألا يعود إلى القاهرة إلا ومعه جثمان الزعيم .. لأن وطنه أولى به .. لكن المهمة لم تكن بالسهولة التى تصورها .. إلا أنه بقدر صعوبتها كان التحدى .

وفى البداية خاطب الحاج خليل عفيفى الكثير من المسئولين حتى نجح فى الحصول على ترخيص من الحكومة المصرية بنقل الرفات إلى مصر وفى ٥ مارس سنة ١٩٢٠ الموافق يوم الجمعة أبحر من الاسكندرية قاصداً برلين عن طريق فرنسا .

وقد واجهته أول العقبات والتى تجسدت فى وجود قانون ألمانى يمنع نقل رفات المتوفين إلى بلدان أخرى ، ولكنه لم يستسلم وظل يسعى مستعيناً بالمصريين الموجودين فى ألمانيا إلا أن محاولاته فشلت فلم ييأس ، وعندما علم أن الحكومة الألمانية قد وافقت لفرنسا على استعادة جثمان ضابط لها مات فى الحرب العالمية الأولى (١٩١٤-١٩١٨م) جدد طلبه مستنداً إلى عدم الكيل بمكيالين وبأن الحالة الإنسانية واحدة فى كل من الحالتين .. بل أن محمد فريد لم يكن جُندياً عادياً، ولكنه كان يعبر عن مصالح شعب وعن حرية وطن .

وحصل الحاج خليل على الموافقة على نقل جثمان الفقيد بشرط موافقة الحكومة السويسرية على مرور الجثمان من أراضيها ، وأيضاً طلب منه الألمان الحصول على موافقة الحكومة الإيطالية ، ونجح فى الحصول على موافقة كلتا

الحكومتين ، وأخيراً نجح فى نقل الجثمان من برلين بعد ستين يوماً من وصوله إليها وعبر بالجثمان سويسرا ثم إيطاليا ومن هناك أبرق إلى مصر ليفيد بقدوم جثمان الراحل الشهيد ملاك الحركة الوطنية محمد فريد .

والتاريخ سيظل يذكر هذا العمل الرائع .. فقد تحمل الحاج خليل هذه المسئولية الوطنية على عاتقه بمبادرة فردية ، وخاض التحدى الذى لم تقدم عليه الدولة وأنفق على المهمة من الألف إلى الياء من ماله الحر الخاص .

وكأن عدالة السماء أرادت أن تكافىء البطل بثلاث جنازات ، أولها فى برلين حيث شيعت الجنازة من المصحة التى توفى فيها فى احتفال مهيب، سار فيها المصريون وعدد كبير من الشرقيين وشارك فيها أيضاً العديد من الألمان والأجانب الذين كانوا يكنون له التقدير والاحترام على دوره الوطنى وعلى تضحياته من أجل حرية واستقلال بلده، وتصديه للاستعمار البريطانى .. وكان يوم الجنازة فى برلين ممطراً اكفهرت فيه السماء . وهبت العواصف وكأن الطبيعة بذلك تعبر عن حزنها على وفاة الزعيم الراحل .

أما ثانى الجنازات فقد كانت فى مدينة الاسكندرية عند مقدم جثته من برلين إليها ، وقد شارك فى هذه الجنازة تقريباً كل أهالى الأسكندرية الذين علموا بوصول الجثمان إليها .

أما الجنازة الثالثة فقد كانت فى القاهرة حيث خرجت جموع الشعب من عمال ومثقفين وقيادات شعبية ، ورغم انشغال الكثيرين بالظروف السياسية التى كانت تمر بها مصر ، إلا أن الجنازة كانت تعبر عن تقدير مصر كلها لمحمد فريد ودوره وبطولته الوطنية وتضحياته .

والتاريخ لا يحكى عن جنازة رائد من رواد الحركة الوطنية أقيمت له ثلاث جنازات جماهيرية إلا فى حالة محمد فريد ، وفى ١٥ نوفمبر ١٩٥٣ احتفلت حكومة ثورة ٢٣ يوليو والجماهير المصرية بتشييع جنازة محمد فريد إلى مقرها الأخير حيث يرقد الآن بجوار زميله ورفيق جهاده الزعيم مصطفى كامل .

ألا رحم الله فريداً وجعل لنا من سيرته ودوره ما يقوى إيماننا بواجباتنا نحو الوطن ..

الفصل السابع
محمد فريد أمام محكمة التاريخ

كان محمد فريد إنساناً رائعاً،.وكان لديه حرص غير عادى على الاتصال بالمثقفين العرب فى كل مكان ليكونوا سنداً لمصر فى كفاحها من أجل الحرية .. وإنسانية محمد فريد وقوة الخير والتعاطف مع الناس فى شخصيته كانت كلها موضع إجماع من مَن عرفوه وعايشوه .

كان محمد فريد روحاً شفافة وعقلاً خصباً وموهبة سياسية عالية .. كان من الرجال القلائل الذين لا يفصلون الفكر عن العمل ولا يحبون أن يكون الفكر بالنسبة لهم مهنة أو احترافاً يقومون بفصله عما يجرى فى الدنيا من وقائع وأحداث .

محمد فريد سياسى من طراز خاص يلفت النظر ويثير التفكير فهو ثمرة خالصة ونقية للتربية من أجل الدفاع عن حقوق الوطن والمواطنين والنضال من أجل الحرية والاستقلال .

والمؤرخ عندما يدرس شخصية محمد فريد يدرك أنها ذات أبعاد ثلاثة :-

مثقف قادر على الحوار أخذ ثقافته بالجهد الذاتى والكدح العقلى الخاص به.

لديه شعور وجدانى عميق فيه لون من الإخلاص والتصوف .

والعنصر الثالث فى شخصيته ، أنه رجل صريح كالصحراء لا غموض فيه ولا التواء . وقد حافظ محمد فريد على تنمية هذا الجانب من شخصيته وتعميقه... فقد كان دائماً يحب السير فى الطرق المستقيمة حتى ولو كانت طويلة ومضنية .. تخلص نهائياً من أي ازدواج للشخصية فهو شخص واحد لا يظهر بمظهر ويخفى وراء الستار مظهراً آخر . وكان يؤمن بأن الازدواج يؤدى إلى الكذب والغموض والتلفيق وكلها أشياء مجافية لانطلاق العقل وحرية الضمير وصدق النفس .

عاش فى الغربة لمدة إثنى عشر عاماً فى عذاب وألوان كثيرة من الضنى، وما

أكثر الأيام التى مرت به وهو لا يملك قوت يومه ... ومع كل هذه الآلام والمعاناة كان محمد فريد يشعر أنه ينتمى إلى الأصالة المصرية وأن ذلك يعطيه المزيد من الثقة بالنفس وكأن هذا الشعور هو الدلالة الراسخة على أن مصر وبنيها من الأمم الحية التى ترفض الاستكانة وتواجه أي استعمار فكرى أو مادى للأرض أو للإنسان .. أما الذين يفقدون الشعور بالأصالة أو يخجلون من جذورهم الحقيقية فهم غير قادرين على الاستقلال ولابد أن يظلوا متعلقين بقوى أكبر منهم ، حتى إذا تخلت عنهم هذه القوى ، فإنهم لن يستطيعوا أن يتحرروا أبدا، بل يظلون مثل العبيد الذين تمكنت منهم طبيعة التابع فإذا حصلوا على الحرية يوماً شعروا بالضياع والكارثة، وسعوا بكل الوسائل إلى التعلق بالقوة الأكبر التى تمنحهم المعنى الوحيد لحياتهم .

وكان محمد فريد يقول لكل من حوله أن لا شئ يعطى للإنسان قوته الحقيقية ويمنحه الثقة العميقة بنفسه إلا أن يتمسك بأصالته فيتخلص من أن يكون ضعيفاً عاجزاً عن التفكير المستقل ومواجهة الآخرين ومواجهة التحديات .

وتبقى نقطة أساسية فى شخصيته ، وهى أنه سياسى مفكر أدرك تماماً أنه ابن من أبناء ثقافة تقوم فى الجانب الأكبر منها على اليقين ولا تقوم على الشك.. وهذا ما جعل أمله فى تحقيق النصر على الاحتلال لا مجال للريب فيه .. كان يؤمن بأن الحياة لها معنى وأن الخير أقوى من الشر وأن الكون لم يقم على الصدفة العابثة وأن الانسان له رسالة فى الأرض وأن التماسك الروحى هو مفتاح التغيير وأنه سلاح الشعوب المقهورة لمواجهة المشاكل والمصاعب .

كان محمد فريد من الذين أدركوا إدراكاً علمياً عميقاً حقيقة المسألة المصرية، وذلك حين أعلن أن مطالب مصر للتحرر من كل سيطرة أجنبية هى الجلاء والدستور وأعلن عدم الرضا بأحدهما بديلاً عن الآخر وأن المطالبة بأيهما لا تغنى عن الثانى .

كان محمد فريد يوقن أن الحكم الدستوى هو السياج الذى يقى الأمة مظالم الحكام ، وقد كتب فى سبتمبر عام ١٩٠٨ محذراً الخديوى من التقاعس عن

إصدار دستور للشعب فعرفت مصر لأول مرة المظاهرات الشعبية المنظمة التى كان فريد يدعو إليها وكانت تضم عشرات الآلاف .. سارت إلى قلب القاهرة معلنة عن مطالبها مشتبكة بالبوليس مضحية بالعشرات فيها .. تمثلت مطالبها فى وضع صيغة موحدة للمطالبة بالدستور وطبع منها عشرات الآلاف وقام الشعب بتوقيعها وإرسالها إلى الخديوى كي تكون بداية لحركة جماعية تطالب بإنشاء مجلس نيابى ، ونجحت الحملة وذهب فريد إلى القصر وسلم أول دفعة من التوقيعات التى بلغت ٤٥٠٠ توقيع ثم الدفعة الثانية التى بلغ عددها ١٦٠٠٠ توقيع .

وبالرغم من أنه كان من كبار الملاك الزراعين حيث ورث ١٥٠ فداناً موقوفة من ثروة والده التى بلغت ١٢٠٠ فدان ، و١٥٠ فداناً غير موقوفة ، إلا أنه خرج من عباءة أسرته وانحاز للفقراء وصار نصيراً للشعب وواجه الخيار الصعب فاختار طريقه الجديد وهو طريق التصادم المستمر والمتواصل مع الاحتلال .. قبل محمد فريد التمايش مع رحلة بالغة المشقة على طريق ملئ بالشوك والعذاب برغم أنه كان بإمكانه أن يحيا حياة الدعة والرفاهية ..وعندما اختار أن يعمل بالمحاماة فى ذلك الحين ، كان شجاعاً لأنها مهنة ضمت بين صفوفها عدداً كبيراً ممن أساءوا إليها إساءة بالغة .

تولى محمد فريد زعامة الحزب الوطنى ورفض أي مساومة تهدف إلى التفريط فى حقوق الفكرة الديمقراطية مصمماً على أن يضرب المثل والقدوة فى كل موقف ... سجن وهاجر وفقد كل ثروته لكنه مع ذلك بقى شامخاً .. هاجم البوليس بيته أكثر من مرة وفى كل مرة كان يمزق أوراقه ويروع أطفاله لكنه لم يستسلم ولم يهادن .. ضرب المثل الأعلى فى الإخلاص والتضحية وإنكار الذات ، مما جعل ذكراه إحياء لقيمة الوطن والصبر على المكاره ولقاء الشدائد بعزيمة ماضية لا تعرف الكلل والملل ولا تركن إلى الخنوع واليأس . كان محمد فريد جريئاً فى الحق معتزاً بكرامة بلده .. كان متواضعاً مع الضعفاء ومتكبراً مع الأقوياء .

اهتم بالمطالبة بجلاء الانجليز واعتبرها قضية وجوده والتى اقترنت فى الوقت

نفسه بالمطالبة بالحكم الدستورى وبمشاركة الشعب فى الحكم ، كما اهتم بالإصلاح الاجتماعى والثقافى ودعا إلى تحسين شؤون العمال والفلاحين صحياً واجتماعياً وطالب بمحو الأمية لأنها العلاج الوحيد للخروج من نفق التخلف .

حقيقة هامة فى حياة محمد فريد ، وهى أنه كان سابقاً عصره بخمسين عاماً على الأقل فى آرائه وأفكاره واتجاهاته ، وفيما كان يطالب بتنفيذه من مشروعات إصلاحية سواءً كانت مشروعات اقتصادية أم سياسية أم اجتماعية .. ويرجع ذلك إلى نشأته، وثقافته وسعة اطلاعه إلى جانب تردده على أوروبا للعلم والمعرفة لا للهو والعبث ، ففى سنة ١٩٠٩ أشار إلى وجوب استرداد قناة السويس مقابل تعويض مالي يدفع للشركة مرة واحدة، أو مقابل قدر من الأرباح وضرب لذلك مثلاً بالدول التى استردت امتياز سككها الحديدية من الشركات .. وكأنه كان يفكر فى سنة ١٩٠٩ فيما أقدمت عليه حكومة الثورة سنة ١٩٥٦ من تأميم شركة قناة السويس .

لم يكن محمد فريد زعيماً سياسياً فحسب، بل كان مفكراً اقتصادياً ومُصلحاً اجتماعياً، فقد طالب بتحرير الاقتصاد الوطنى وتوجيه ثروة البلاد إلى ما فيه خير أهلها وسعادتهم، كما عمل على تأليف النقابات العمالية والروابط وكان إنشاء أول نقابة للعمال سنة ١٩٠٩ فى القاهرة ثم سرت فكرة إنشاء النقابات فى سائر المدن .

ويعود الفضل لمحمد فريد فى إنشاء أول نقابة زراعية فى بلدة شبرا النملة ، فكانت أول نقابة فى البلاد من هذا النوع .

وعندما ألقيت أعباء القيادة على محمد فريد بعد وفاة مصطفى كامل .. كانت كل الآراء أو غالبيتها تؤكد أن الحركة الوطنية ستنتهى بنهاية الزعامة الشابة الموهوبة –زعامة مصطفى كامل –وكانت مؤامرات الإنجليز قد بلغت ذروتها .. ومضت الأيام فإذا بقيادة محمد فريد تصبح أكثر قوة وحزماً ووضوحاً من قيادة مصطفى كامل، وإذا بالحركة الوطنية تزداد انتشاراً ونفوذاً ورسوخاً فى أيام محمد فريد عنها فى أيام مصطفى كامل ، وإذا به يقطع نهائياً كل صلة للحركة

الوطنية بالخديوى ويتجه بكل قوته وإيمانه وحيويته وثقته إلى الشعب ينظم جهوده ونشاطه وقوته تحت راية الحزب الوطنى .

لم يلجأ فريد فى نضاله الخارجى إلى الدول المستعمرة ، بل إلى المؤتمرات العالمية المناهضة للاستعمار ومن أبرزها مؤتمرات السلام التى عقدت فى إستكهولم وروما وبروكسل وغيرها، وربط على نحو غير مسبوق بين قضية الاستقلال الوطنى والاستقلال العالمى .

لقد ضحى محمد فريد فى سبيل مصر بمنصبه القضائى المرموق ، وبثروته الضخمة التى ورثها عن أبيه وضحى بمنصب الوزارة حين عرض عليه محمد سعيد باشا فى سنة ١٩١٠ أن يشترك معه فى وزارته وقال له كلمته المشهورة :-

" كيف تطلب منى أن اشترك فى حُكم البلاد فى ظل الاحتلال وأنا أكافح الاحتلال ... فكيف يتفق النقيضان " .

ثم ضحى بصحته حيث عرض عليه العودة إلى مصر لأن جوها يناسب صحته بشرط أن يتغاضى عن الحماية ، وكان الأطباء ينصحونه بالعودة لأن مرض الكبد الذى أصيب به لا شفاء له إلا فى بلد دافئ ولكنه كان يرفض دائماً .

وأخيراً جاد بأنفاسه من أجل مصر واستقلالها وحريتها .. فمات فى ١٥ نوفمبر سنة ١٩١٩ بعد أن عاش عيشة الكفاف ..يسكن فى غرفة متواضعة فوق سطح إحدى عمارات برلين ويرتدى البذلة البيضاء صيفاً وشتاءً.

صحيح أن محمد فريد كان بشراً ... ولكنه كان أقرب إلى الملائكة وغالباً ما يكون للرواد أخطاء أو نزوات ولكنه بين الزعامات القليلة فى تاريخ مصر التى لم يعرف لها نزوة ... فلم يلعب القمار فى حياته أسوة بالبعض ولم تعرف عنه نزوة نسائية ولم يساوم على مبادئه وعاش حياته مكافحاً مناضلاً ... مؤمناً بقضية وطنه ... فكان أن مجده التاريخ اعترافاً بفضله وإجلالاً لقدره وكانت ثقة الشعب به كبيرة لأنه قدوة قل أن يجود بها موكب التاريخ المصرى خلال مسيرته الطويلة.

كان محمد فريد يردد دائماً :-

" من السهل أن تتولى الحكم ، ولكن ليس من السهل أن تسوس المحكومين " .

لأن الحكم صناعة وفن والحاكم ينبغى أن يكون فناناً بارعاً يعرف كيف ينتج ويبدع ، ولكن فى ظل وجود احتلال يفتقد الحاكم أي إرادة سياسية ، ومع سيطرة الحكم المنفرد والحاشية المحيطة بالحاكم لا أمل لأي شعب فى مستقبل أفضل .

كان محمد فريد يؤكد لكل من حوله أن المجتمعات تتألف من مجموعة كبيرة من النظم الاجتماعية وأن لكل نظام أسسه ومفاهيمه وأساليب التفاعل فيه وهو مما يؤثر على الأفراد .. وكان يؤمن بالعدالة الاجتماعية ويأمل فى التكامل الاجتماعى بين الفقراء والأغنياء ، وكان دائماً يقول نريد أن نسمع أسماء الأغنياء ، مقرون بما ينشئون من مستشفيات ومعاهد ووحدات للفقراء والصناع والعمال . وكان بين أعظم كلماته التى يحفظها له التاريخ :-

" إنى أتهم الأغنياء ذوى الكثرة والأغنياء ذوى الأثرة بيننا والذين لا يقلون عن تسعة وتسعين فى كل مائة غنى، إن لم يزيدوا .. والأغنياء ذوو الأثرة هم أولئك الذين يملكون الأموال الطائلة أو يكسبونها فيقصرون نعمتها على ذات أنفسهم ولا يعودون على مفاقر الجماعة أو مرافقها إلا بما يوجه به القانون من ضريبة يؤدونها للدولة على كره، فإن زاغت فى بعضهم الضمائر عمد إلى تزييف الدفاتر ضنا على ملايين الأميين من هذا الشعب الكريم بالوسيلة إلى بصيص من نور ، وعلى ملايين مرضاه بالوسيلة إلى سكة من رحمة وعلى ملايين فقرائه ومعدميه بالوسيلة إلى شئ من رخاء وشئ من هناء ... إنى أتهمهم بجهل أعماق الحياة مهما يعرفوا من سطوحها وظواهرها، واتهمم بجهل أهدافها مهما أحرزوا مرازقها ومفاتنها " .

هكذا كان رأى محمد فريد فى أغنياء عصره وأثريائه مما يدل على أنه كان سابقاً لعصره فى كل أفكاره .. كان يحب مواطنيه ويتفانى فى أن يرى هذا الوطن حراً مستقلاً ..

إن سيرة محمد فريد الزعيم الشهيد جديرة بأن تعيها ذاكرة كل مواطن غيور

على وطنه وعلى مستقبل مجتمعه .. يقدر الجهاد الخالص لله وللوطن .. حيث أنه قد ضرب أروع الأمثلة فى التضحية والإخلاص ، ولا شك أن تاريخ مصر القومى ليزدان بسيرته العطرة ومسيرة كفاحه الجللة بالفخر والاعتزاز وكل حياته كانت دروساً للمعنى السامى للوطنية .

لقد كان الزعيم محمد فريد متفرداً فى كل مزاياه ، فهو مسلم شديد التدين وهو ثورى عميق الثورية وهو متجرد ومخلص يتمتع بالشفافية والصراحة إلى أقصى درجة وهو منحاز إلى الفقراء والمستضعفين رغم كونه من أسرة ثرية ثم هو يعطى بلا حدود فينفق معظم ثروته على العمل الوطنى ويموت فى المنفى فقيراً مريضاً .

تتلخص مبادئ كفاحه من أجل أهداف أربعة هى الجلاء ووحدة وادى النيل والدستور والجامعة الإسلامية وفى إطار الإيمان بالجامعة الإسلامية ، انفرد محمد فريد بتأجيج هذا الإيمان وقوته، حيث كان كتابه عن تاريخ الدولة العلية العثمانية الذى طبع ثلاث طبعات على التوالى فى سنة ١٨٩٣ ثم أعيد طبعه سنة ١٨٩٦ ثم مرة ثالثة فى سنة ١٩١٢ مما يدل على ثبات موقفه فى هذا المبدأ .

ولا شك أن محمد فريد أدرك منذ وقت مبكر ذلك التعصب الذى تقوده أوروبا ضد العالم الإسلامى ، وأن أوروبا لا تهدف إلا إلى تفتيت وحدة هذا العالم الإسلامى مما يتضح من موقفها من الدولة العثمانية، والإصرار على اقتطاع أجزائها الواحدة تلو الأخرى .. ولعل محمد فريد بذلك كان يعلم أن ضياع العالم الإسلامى هو ضياع لمصر ولكل الشرق ولذا كان يدعو إلى تضامن الأمم الإسلامية فى كل خطبه ومقالاته .

لقد اهتم محمد فريد فى منفاه فى أوروبا بإنشاء جمعية أطلق عليها اسم جمعية ترقى الإسلام وأصدر مجلة فرنسية باسم الجمعية تدافع عن الإسلام وتظهر قيمه ومبادئه وأهمية رسالته عن طريق نشر المقالات الإسلامية والأخبار التى تهم العالم الإسلامى .

وانطلاقاً من فهم محمد فريد للإسلام ، وانطلاقاً من التزامه بمبادئ هذا

الدين الحنيف ، فإنه قد انحاز انحيازاً واضحاً للفقراء، واهتم بنشر التعليم، وتتجلى جهوده تلك فى دراسته للميزانية فى اجتماعات الحزب الوطنى ودعوته إلى تعديلها للانفاق على إصلاح حال الشعب والعناية بالصحة والأحياء الشعبية ، ففى يوم ٧ يناير سنة ١٩١٠ قال :-

" إن هناك إهمال واضح للأحياء الشعبية وهناك عدم اعتناء بصحة الأهالى " .. وكان يقارن دوماً بين وضع المصريين من حيث أن متوسط الوفيات فى السنة يتراوح بين ٦٠-٨٠ فى الألف مع أنها فى مدن أوروبا لا تزيد عن ٢٥ فى الألف مطلقاً .. وأن ذلك ليس لفقر فى الميزانية المصرية ولكن لإهمال مصلحة الصحة وصرفها المبالغ المخصصة لها فى الأحياء التى يقطنها الإفرنج وإهمالها باقى الأحياء .

وفى نفس الخطبة يقول محمد فريد :-

" إن المعاهدات التجارية التى تبرمها الحكومة مع الدول التى لا تراعى مصالح البلاد الاقتصادية ... خطر على مصلحة مصر والمصريين، ويجب الاهتمام بالحاصلات الضرورية للفقراء وعدم فرض الضرائب عليها، بل يجب فرض الضرائب والجمارك على المنتجات الأجنبية، ويجب العمل على تشجيع الصناعات الوطنية، وليس من المعقول أن تفرض على الحنطة والدقيق نفس الضرائب التى تؤخذ على الخمور، بل ليس من المعقول أن تفرض الحكومة ضريبة تصل إلى ٨٠٪ على المغازل المصرية فى حين تعفى صناعة الخمور منها " .

لقد دعا محمد فريد إلى سن تشريع للعمال يراعى مصالحهم ويرفع عنهم البؤس والجهل والارهاق، كما اهتم بإنشاء نقابات للعمال والصناع لترقية أحوالهم والعناية بشؤونهم وساهم بنفسه فى تأسيس نقابة للصناع بالقاهرة وهى نقابة عمال الصنائع اليدوية وأنشأ لها نادياً ببولاق ، ذلك إلى جانب المساهمة فى إنشاء العديد من الجمعيات التعاونية الزراعية أو الصناعية فى القرى والمدن . وقد وجه محمد فريد تلاميذه إلى بذل جهودهم لدعم الحركة التعاونية والمشروعات الاقتصادية واعتبر هذا عملاً وطنياً من الدرجة الأولى .

وكان يقول دوماً أنه يفضل أن يكون سجيناً فى بلد حر ولا يريد أن يكون حراً فى بلد سجين .. كما كان دوماً يردد أن الرجال يصنعون تاريخهم ولكنهم لا يصنعونه كما يشاءون .. إنهم لا يصنعونه فى ظل ظروف يختارونها بأنفسهم، بل فى ظل ظروف مباشرة من صنع الماضى .

لم يخضع محمد فريد أبداً لأي إغراءات .. كما أنه رفض التخلى عن مبدأ الحزب الوطنى المتمثل فى التمسك التام بالجلاء .. وقد عرض عليه بعض النواب البريطانيين استعدادهم لإجبار الحكومة البريطانية على منح مصر الاستقلال الذاتى مقابل التنازل عن طلب الجلاء لكنه رفض مطلبهم .

كما حاول بعض المصريين أن يخففوا من غلوائه وتشدده فى قيادة الحركة الوطنية متهمين إياه بالعنف ، فكان يؤكد لهم بما لا يدع مجالاً للشك أن عدم مطالبتهم بجلاء القوات البريطانية عن مصر يعد خيانة للوطن .. وكان محمد فريد يؤمن بأن التعاون مع المحتلين جريمة لا تغتفر ، ولهذا رفض كل العروض التى قدمت له للمشاركة فى الحكم وعاب على أولئك الذين قبلوا الحكم فى ظل الاحتلال البريطانى ورفض حتى مجرد التعاون معهم .

وعندما ذهب محمد فريد إلى لندن فى يونيو ١٩١٠ للاشتراك فى مؤتمر الأمم المهضومة الحقوق ، قال فى كلمته :-

" نحن لا نقبل أبداً الاعتراف بالاحتلال البريطانى لأننا نعتبره غير شرعى ، كما نعتبره مؤسساً على القوة الغاشمة التى لا يجوز أن تكون مطلقاً أساساً لحق من الحقوق " .. ووجه كلامه للحاضرين قائلاً :-

" أتيت إلى هنا باسم الحزب الوطنى لأذكركم بالوعود والعهود التى صرحتم فيها بالجلاء عن مصر وردها إلى أهلها ، كما جئت لأثبت لكم أن شرف انجلترا يقضى عليها الوفاء بهذه الوعود " .

سلبيات محمد فريد :-

فى فترة متأخرة من حياته كان يهاجم العلمانية وتحرير المرأة -وخاصة سفور المرأة واشتراكها فى الحياة العامة ، وهو موقف كان يرفض الأخذ بأسباب التقدم

الغربى والتى أخذ بها جمال الدين الأفغانى ، والشيخ محمد عبده إلى حد اتهام الأخير وقاسم أمين بالإلحاد .

البعض اتهم الحزب الوطنى بأنه أصر على طلب الدستور على النمط الغربى - فى عهد مصطفى كامل - وطلب قانون انتخاب يحقق تمثيل الأمة تمثيلاً حقيقاً .. وما وجه إلى محمد فريد فى هذا الشأن هو أنه كان يريد تضييق حق الانتخاب أكثر مما نادى بتضييقه حزب الأمة، وذلك بقصره على المتعلمين ، أي أنه - من وجهة نظر منتقديه - كان يدعو لإقامة نوع من الديمقراطية المحدودة أو ديمقراطية الصفوة الممتازة .

ولكن يمكن الرد على هذا بأن محمد فريد كان يعمل على ضرورة تمكين المصريين من إدارة أمورهم بما يوافق مصالحهم دون أن يشير إلى جعل حق الانتخاب حقاً عاماً لجميع المصريين أو العكس .. وعلماً بأن تاريخ فريد يؤكد حرصه على محاربة الأمية وفى نفس الوقت انحيازه لفئات الشعب المقهورة ، فلا يعقل أن تكون هناك مطالبة من جانبه بقصر الانتخاب على فئات معينة من الشعب .

نادى محمد فريد فى مستهل حياته بخروج الانجليز من مصر ، ولكنه نادى كذلك بتقوية عرش التبعية للدولة العلية حفظاً للإسلام وإعلاءً لكلمته ، وذلك لأنه كان يرى أن استقلال مصر التام يجعلها مطمعاً للدول الأجنبية ، وأن فكرة ارتباط مصر بالدولة العلية الهدف منها غل أيدى الانجليز على ابتلاعها صفقة واحدة ، ولكن عندما تأكد له طمع الدولة العثمانية من خلال حركة التتريك بدأ يتخلى عن موقفه ..

وكان من السلبيات التى وجهت لمحمد فريد أنه لم يحرص على بناء كوادر من الشباب ليقودوا الحزب الوطنى .. ولكن الرد هو : كيف يتسنى له ذلك وهو لم يستمر سوى أربع سنوات على أرض الواقع كانت كلها مشكلات ومعاناة حتى خروجه للمهجر .

لقد نادى محمد فريد بشعار مصر للمصريين فى إطار الجامعة الإسلامية ،

وإذا كان فى بعض المواقف قد خضع للشيخ عبد العزيز جاويش إلا أنه عندما اكتشف أن جاويش كان مستعداً للعمل لصالح أي طرف حتى ولو كان الانجليز .. وبعد أن تحقق من خذلان الأتراك له، أعلن شعاره الجديد " مصر للمصريين شعبها حارسها وأبناؤها بنائها " .

ومع كل ذلك فإن محمد فريد يبقى نموذجاً للعطاء الذى لم ينقطع منذ بدء العمل العام وحتى آخر لحظة من حياته ولعله الشخص الوحيد بين رواد الحركة الوطنية الذى لم يستفد من العمل الوطنى ، بل أفنى ماله وصحته فى سبيل قضية دافع عنها حتى آخر لحظة .

هكذا لا عجب فى أن ينحنى التاريخ لمحمد فريد اعتزازاً بالدور الذى لعبه فى حياة مصر والمصريين .. ولا تنسى جماهير مصر ذلك الدور الذى قام به فى سبيل حرية مصر واستقلالها ، مما يضعه فعلاً على رأس قائمة رواد الحركة الوطنية الذين تعتز بهم مصر شعباً وتاريخاً .

الخاتمة

إن ذكرى محمد فريد لا تتقادم ولا تتضاءل عظمتها ، تتجدد على مر السنين بتجدد الحوادث والظروف وتراها اليوم نوراً ساطعاً يضيئ لنا الطريق ، فحتى الآن لا زالت الأمية عائقاً أمام تطور مصر نحو الأفضل ..

ومن المؤسف أن محمد فريد لم يقدر حق قدره ، ورغم ذلك فإنه كان ولا يزال فى طليعة أبطال الأمم وقادة الشعوب فى سبيل حريتها، واستقلالها .. وكان خير إحياء لذكراه أن نعرض سيرته وأن نكتب تاريخه وأن نتذكر دائماً جهاده ونضاله فى سبيل مصر .

لقد تلخصت مطالب محمد فريد خلال نضاله فى النقاط التالية :-

جلاء القوات البريطانية عن الأراضى المصرية من منطلق أن هذا الجلاء هو الدواء الوحيد للاحتلال .

وحدة وادى النيل لأن من يملك أعالى النيل يتحكم فى رقبة مصر .

رفض المعاهدات التى تولد باطلة لأنها ضد حريات الشعوب .. والتأكيد على أن حرية الشعوب لا تفقد بمضى المدة ولا تستطيع الدول أن تتصرف فيها بمعاهدات كما تتصرف فى السلع ، لأن أية أمة لا تستطيع أن تتصرف فى نفسها ولا فى وطنها تصرفاً يضر بحقوقها لأن الوطن ليس ملكاً لجيل من الأجيال .. بل هو ملك للأجيال الحاضرة والمستقبلية كما كان ملكاً للأجيال الماضية .

كان محمد فريد بلا شك زعيماً مصر فى حاجة إليه وهو فى حاجة إليها ، ولكن القدر فرق بينهما ، إلا أنهما دائماً كانا يتلاقيا لبناء المستقبل والدفاع عن الحرية والكرامة .. والزعيم هو ذلك البطل القومى الذى استطاع وفق مكونات وممارسات خاصة أن يجسد أو يعبر عن الاتجاه العام للوطن أو غالبيته أو حتى قطاع كبير منه وأن يستشعر هذا المجموع أن الزعيم يمثل - أو هو الأقرب لأن يمثل إرادة وطموحات ومواقف ومشاعر جماعية أو شبه جماعية .. ولأننا نتحدث

عن الزعيم السياسى ، فإن هذه الإرادة وتلك المواقف غالباً ما تكون متعلقة أساساً بمشروع أو هدف قومى ... وذلك كله ينطبق على محمد فريد والذى كان مشروعه استقلال وحرية مصر وطرد المحتل البريطانى من أرضها الطاهرة وتملكها مقومات اقتصادها حتى تستعيد إرادتها السياسية .

والذى لا شك فيه أن محمد فريد كان يمتلك الشخصية الكاريزمية القادرة على القيادة الآمرة أو الملهمة وهى تعنى تملكه لميزات شخصية يتميز بها عن الأشخاص العاديين بما يمنحه قوة استثنائية عن غيره من الزعامات - و"الكاريزما" يمكنها أن تتحقق فى قيادات سياسية أو دينية أو ثورية أو فنية ليس فقط أو فى من أنجز عملاً مهماً - لأنه يستمتع باعتقاد أتباعه بأنه يمتلك مميزات أو قدرات غير عادية وهو اعتقاد ينبع من مشاعر تبدو كأنها تتدفق بشكل سحرى عبر مجرى غير مرئى ..

ولابد من ضرورة النظر إلى ظاهرتى الزعامة والقيادة السياسية باعتبارهما نوع من ممارسة النفوذ داخل التجمعات الاجتماعية سواء أكانت حزباً أو جماعة أو مجتمعاً محلياً أو أمة .. والزعماء فى نظر تابعيهم هم أصحاب القوة التحريرية القادرة على تقديم تصور للبناء ، وخلق أهداف جديدة للمجتمع ، وإبداع آفاق تتلاءم مع هذه الأهداف ، وامتلاك قدرات خاصة على صياغة منظومة بناء القيم الاجتماعية الجديدة .. فالزعيم هو شخص يتميز عن الآخرين بما يمتلكه من مكانة ورؤى خاصة وحسم وشجاعة وذكاء وقدرة .

وقد تحدث محمد فريد عن الفضائل التى يتعين توافرها فى الزعيم والتى منها قوة الإرادة والصدق والشجاعة والأمانة والاعتماد على النفس والسعى نحو فعل الخير وسرعة الخاطر مع العلم الصحيح وقوة الخطابة مع الشفافية والتعبير بلغة صحيحة وسهلة ومؤثرة .

فالزعامة هى علاقة بين الزعيم والشعب يجرى نسجها عبر مفردات محلية تؤثر فيها طبيعة كل شعب ومكوناته الفكرية ومعتقداته وأخلاقياته والقيم التى تترسخ فى وجدانه .

لقد أكد محمد فريد أن المصريين عرفوا كيف يحبون وطنهم منذ الزمان القديم .. وكانت له رؤى فلسفية تتمثل فى أن الوطن شئ مادى ملموس يمكن الإمساك به من بحر الظلمات شمالاً إلى الجنادل جنوباً ، بينما الوطنية شئ نفسى وجدانى .. وأن التعليم هو سر نهضة الأوطان .

ولم يكن غريباً أن يتقدم الفتى الأرستقراطى سليل الأسرة العريقة ليخوض معركة السياسة، فقد تقدم غيره من أبناء الأرستقراطية عبر هذا الطريق ، فعبد الخالق ثروت باشا ، عدلى مكين باشا، محمد محمود باشا وغيرهم كانوا زعماء من أصل أرستقراطى ولكنهم أبداً لم يخرجوا من طبقتهم .

لكن الغريب هو أن محمد فريد وبرغم أنه كان أكثر أرستقراطية من هؤلاء جميعاً ، إلا أنه تخطى حاجز الطبقة وانحاز للفقراء من أغلبية المجتمع المصرى وانطلق ليتفانى بصدق وإخلاص ويضحى من أجل قضية وطنه وشعبه .

وشتان بين أرستقراطى يمتطى حركة الجموع الشعبية ليخدم مصالح طبقة ، وبين آخر يضحى بكل ماله ويتحرر من أسر المصالح الطبقية الضيقة بل ويشن الحرب على طبقته ولا يستشعر مصلحة إلا مصلحة الوطن ولا محبة إلا محبة جماهيره ولا مستقبلاً إلا فى الحرية والاستقلال .

إن دراسة ماضى أي وطن هى دروس للمستقبل .. فكل من يقرأ تاريخ بلده ويستوعبه ويدرك الدروس المستفادة من أحداثه ، يستحق أن يعيش فوق تراب الوطن .. أما من تنقطع صلته بهذا التاريخ ، فإنه يكون قد فقد البصيرة على معايشة الحاضر والتعايش مع المستقبل .

من خلال فهم تاريخ هذا الوطن يمكن فهم عبقرية شعبه .. الوطن الذى أنجب أمثال محمد فريد ومن قبله مصطفى كامل ومن بعده سعد زغلول والذى كان ولا زال وسيظل نسيجاً واحداً تشارك فيه المرأة الرجل لتحقيق الذات وللإسهام فى بناء المستقبل للجميع من خلال الانتماء الذى يليه العطاء الذى يترجم إلى البناء .

لابد من أن نجلس لنقص ونروى كيف خرج الأبطال من هذا الشعب وهذه الأمة فى فترة حالكه يحملون مشاعل النور لتضىء الطريق ، حتى تستطيع أمتهم

أن تعبر الجسر بين اليأس والرجاء .. لابد من أن نسترشد ونقتدى بهم .. وليبذل كل منا أقصى جهده فى موقعه وليحمل أمانته ويؤدى دوره على أكمل وجه .

لقد أثبتت حركة النضال المصرى أن النصر أولاً وأخيراً يعود إلى الفرد المؤمن بهدفه المخلص لواجبه المحب لوطنه المستعد لبذل الغالى والرخيص فى سبيل نصرته .

وتبقى فى نهاية هذه الخاتمة بضع سطور هى جسور الصلة بين الأجيال السالفة وتلك الحاضرة ... وهذه القادمة ...

أولاً : الإنسان العاقل هو الذى يهتم بالمستقبل لأن هذه هى المساحة من التجربة الإنسانية التى يمكن للمرء ان يفعل فيها ما يشاء .

فالإنسان عاجز بحكم الواقع عن تغيير الماضى .. كما أن الحاضر لن يلبث أن يختفى عندما نرصده ، أما المستقبل وحده فهو الذى نستطيع التحكم فيه والتخطيط له ولو فى حدود معينة ... فللإنسان قدرة على صنع المستقبل ولو فى حدود معينة وهذه القدرة هى التى أوجدت المجتمع الإنسانى بالصورة التى هو عليها .

ثانياً : بالرغم من كل ما أحرزه الإنسان من اختراعات فى المجال التكنولوجى إلا أنه أغفل إلى حد كبير جداً المجال الاجتماعى الذى يجب إعطاؤه أولوية مطلقة وهى قضية تعرض لها محمد فريد فى أكثر من موضع .

ثالثاً : الإنسان هو صانع مستقبله وقدره ومصيره عن طريق الاستخدام الأمثل لقواه الذهنية وملكاته العقلية وقدراته الإبداعية فى التغلب على الصعوبات ومعوقات التقدم والارتقاء فالعامل البشرى هو الأساس فى صنع المستقبل ونشر فكرة التقدم .

رابعاً : علينا أن نتذكر دائماً أن للعلم عقل وللتطور مفاهيم وللتقدم ضمير وأن سلوكيات الفرد أو الجماعة لابد وأن تحكمها مجموعة من القيم الروحية.

خامساً : أن الحرية هى إرثنا الكبير فى مصر وبفضلها استطعنا أن نقاوم غزو الغزاة ونكسر سلاسل الحديد التى تقيد حركتنا إلى الأمام وتعوق تطورنا نحو ما ينبغى أن نكون عليه فى وطن حر يشعر فيه الجميع بالمواطنة والعدالة الاجتماعية وسيادة القانون .

سادساً : قلائل من الناس يذهبون نحو الرحلة الأبدية ولكنهم يبقون فى ضمائر الناس أحياء .. ولا يملك التاريخ أن يسدل عليهم ستائر النسيان ... ففى القبور أحياء لا يموتون أبداً ... فطوبى لمن يموتون وهم يرفعون مشاعل الحرية من أجل أوطانهم ... وطوبى لمن يضحون بأرواحهم من أجل بلادهم ... أولئك ستظل أعمالهم ومواقفهم تتكلم عنهم وتبث الضوء والأمل فى نفوس غيرهم .

المصادر والمراجع

١- آرثر إدوارد جولد سميث :

الحزب الوطنى المصرى -ترجمة فؤاد دوارة

الهيئة المصرية العامة للكتاب -القاهرة ١٩٨٣

٢- عبد الرحمن الرافعى :

محمد فريد (رمز الإخلاص والتضحية)

تاريخ مصر القومى من سنة ١٩٠٨ إلى سنة ١٩١٩

مكتبة النهضة المصرية / القاهرة ١٣٨١ه - ١٩٦١م ، ط٢

٣- عبد الرحمن الرافعى :

مصطفى كامل (باعث الحركة الوطنية) تاريخ مصر القومى من سنة ١٨٩٢ إلى سنة ١٩٠٨م

دار المعارف بمصر ، القاهرة ١٩٩٩، ط ٦

٤- فتحى رضوان :

مصطفى كامل

دار المعارف بمصر القاهرة ١٩٧٤ ، ط ١

٥- عبد المنعم إبراهيم الجميعى :

الخديوى عباس حلمى الثانى والحزب الوطنى

دار الكتاب الجامعى -القاهرة ١٩٨٣ ط ١

٦- حسين فوزى النجار

مصطفى كامل رائد الوطنية

الهيئة المصرية العامة للكتاب -القاهرة ١٩٩٤

٧- عبد العظيم رمضان

مذكرات السياسين والزعماء فى مصر (١٨٩١-١٩٨١)

دار الوطن العربى -القاهرة ١٩٨٤ ، ط ١

٨- مصطفى النحاس جبر يوسف :
سياسة الاحتلال تجاه الحركة الوطنية (١٩٠٦-١٩١٤)
الهيئة المصرية العامة للكتاب - القاهرة ١٩٧٥
(مركز وثائق وتاريخ مصر المعاصر)

٩- عبد العزيز على :
الثائر الصامت
دار المعارف بمصر - القاهرة ١٩٧٦

١٠- محمد نجيب :
شخصيات وذكريات فى السياسة المصرية
كتاب الجمهورية - العدد ٣٧
القاهرة أول مارس ١٩٧٢

١١- الأهرام :
١١٠ مقالات و ١١٠ أعوام (١٨٧٦-١٩٨٦)
شهود العصر
مركز الأهرام للترجمة والنشر - القاهرة ١٩٨٧

١٢- شحاتة عيسى إبراهيم :
عظماء الوطنية فى مصر فى العصر الحديث
الهيئة المصرية العامة للكتاب - القاهرة ١٩٧٧

١٣- صلاح زكى :
قادة الفكر العربى (عصر الليبرالية العربية) (١٩٠٠-١٩٥٢)
مركز الحضارة العربية - القاهرة ٢٠١٠م ، ط ١

١٤- أعلام النهضة الحديثة :
الحلقة الأولى مستلة من مجلة الكتاب .
دار الحمراء للطباعة والنشر - بيروت ١٩٩٠ ، ط ١

١٥- رفعت السعيد :
الزعامات السياسية المصرية
أخبار اليوم قطاع الثقافة - القاهرة ٢٠٠٣م

١٦- مذكرات السلطان عبد الحميد الثانى :
ترجمة محمد حرب عبد الحميد - القاهرة ١٩٨٩

١٧- على عبد اللطيف :
تاريخ مصر الحديث
جامعة عين شمس - القاهرة ٢٠٠٤م

١٨- أورخان محمد على :
السلطان عبد الحميد الثانى (حياته وأحداث عهد)
مكتبة دار الانبار - بغداد ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م ، ط ١

١٩- الوقائع المصرية فى تواريخ مختلفة .

٢٠- جريدة المؤيد فى تواريخ مختلفة .

٢١- عاطف أحمد فؤاد :
الزعامة السياسية فى مصر (عرض تاريخى - تحليل سسيولوجى) - القاهرة ١٩٨٠

٢٢- محمد على غريب :
محمد فريد الفدائى الأول - القاهرة ١٩٦٨

٢٣- محمد صبيح :
مواقف حاسمة فى تاريخ القومية العربية
القاهرة ١٩٦٤ المجلد الثانى

٢٤- رفعت السعيد :
محمد فريد الموقف والمأساة
القاهرة ١٩٩٠

٢٥- علی فهمی کامل :

سيرة مصطفى كامل فى أربعة وثلاثين عاماً

القاهرة ١٩٢٧، جـ ١

٢٦- نبيل السمالوطى :

بناء القوة والتنمية السياسية

(دراسة فى علم الاجتماع السياسى) القاهرة ١٩٧٨

٢٧- مذكرات محمد فريد :

القسم الأول (تاريخ مصر ابتداءً من سنة ١٨٩١م)

حقق وقدم لـ رءوف عباس - القاهرة ١٩٧٥

٢٨- أوراق محمد فريد :

المراسلات

تحقيق مصطفى النحاس جبر - القاهرة ١٩٠٢

٢٩- المجلة التاريخية المصرية - الجمعية المصرية للدراسات التاريخية :

المجلد رقم ٤١ (٢٠٠١/٢٠٠٢م)

محمد صابر العرب

القيمة التاريخية للمذكرات الشخصية ص ص ٣١٣-٣٢٩

٣٠- أحمد شفيق باشا :

مذكراتى فى نصف قرن ، جـ ٣

(تاريخ المصريين) رقم ١١٥

الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٨

٣١- محمد سيد كيلانى :

السلطان حسين كامل (فترة مظلمة من تاريخ مصر) ١٩١٤-١٩١٧م

دار العرب للبستانى - القاهرة ١٩٦٣ ، ط

٣٢- هيوج . شونفلر :
قناة السويس
تعريف أحمد خاكى
سلسلة الفكر الحديث العدد الخامس ١٩٥٠
٣٣- لمعى المطيعى :
هؤلاء الرجال من مصر
الهيئة المصرية العامة للكتاب - القاهرة ١٩٩٣ - ج ٣
٣٤- جوان فرنسيتش تينح :
معجم تاريخ مصر - المجلس الأعلى للثقافة
القاهرة ٢٠٠٣م - ط ١
٣٥- لويس جرجس :
يوميات من التاريخ المصرى الحديث ١٧٧٥ - ١٩٥٢ .
تاريخ المصريين رقم ١٢٠
الهيئة المصرية العامة للكتاب - القاهرة ١٩٩٨ .
٣٦- جورج سليم كيرلس :
صلاح عبد الصبور
قصة الضمير المصرى الحديث - القاهرة ١٩٧٢
٣٧- Ahmed, J.M.
The intellectual origins of Egyptian Nationalism Oxford 1960.

مطابع الهيئة العامة للاستعلامات



تذكرت بمناسبة مرور عشرين عاماً على بدء مشروع القراءة للجميع عام ١٩٩٠ حكاية تقول إن الفيلسوف اليونانى " أرسطو " كان معلماً للإسكندر المقدوني، وإنه استطاع أن يشحن وجدان الإسكندر ، ويشحذ رغبته ولعاً بكل أشكال التعليم والقراءة ، حتى إن الإسكندر لم يكن يظهر إلا وفى يده كتاب ، ولكن حدث خلال إحدى رحلاته إلى آسيا أن عانى قلة الكتب ، فإذ به يأمر أحد قادة جيوشه أن يحضر له بعض ما يقرؤه .

وكأن هذه الحكاية قد جاء تذكرها بمثابة حساب للنفس عما أنجزناه ، حتى لا يعانى أحد قلة الكتب وجوداً وثمناً ، فتجلت مكتبة الأسرة ، التى بدأت عام ١٩٩٤ ، هى المصالحة الواقعية التى تجاوزنا بها تلك المشكلة ، تحقيقاً للإتاحة العامة للكتاب ، وذلك بالربط بين اتساع إصداراتها المتنوعة في شتى مجالات المعرفة ، والدعم المادي الذي تتمتع به أسعار تلك الإصدارات ، فيجعلها في متناول الجميع . وقد تلازم نشاط مكتبة الأسرة لسنوات عدة مع فعاليات مشروع القراءة للجميع ، لكننا أخيراً أكدنا ضرورة استمرار إصدارات مكتبة الأسرة طوال العام ، انطلاقاً من حكمة قديمة ما زالت تعاصرنا ، وهى أن من ... القراءة، يستطيع رؤية ضعف ما يراه الآخرون .

رقم الإيداع
٢٠١٠/١٣٢٤٨

www.sis.gov.eg